
مطبوعات
مكتبة مصر
الفارس الجميل
علي أحمد باكثير

الفارس الجميل

الفارس الجميل

تأليف
علي أحمد باكثير

الناشر
مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة

تقديم

١

هذه هى القصة التاريخية الخامسة للأديب الكبير : على أحمد باكثير ، ظلت طى النسيان ، منذ نشرها على ثلاث حلقات ، فى مجلة « القصة » المصرية عام ١٩٦٥ م ــ الأعداد ١٤ / ١٥ / ١٦ ــ إلى أن تبرعت « مكتبة مصر » ــ كعادتها فى الاهتمام بأدب باكثير ــ بطباعتها ،لتنضم إلى قافلة الروايات الأربع السابقة سلامة القس ، وإسلاماه ، الثائر الأحمر ، سيرة شجاع .

وبهذا يمكن للنقاد ، الوقوف على مسار التطور الروائى عند باكثير . فهذه الرواية لا تقدم الجديد فى الفن الروائى التاريخى عند باكثير فحسب ، بل وتعيد النظر فى أقوال النقاد حول الرواية التاريخية فى الأدب العربى :

١ ــ فهى ترد على الذين يزعمون أن الرواية التاريخية ، جاءت مرافقة لفترة المد القومى ، ثم اختفت بعد ثورة مصر ١٩٥٢ م . وقد كتب باكثير رواية أخرى غير هذه بعد الثورة ، تلك هى « سيرة شجاع » سنة ١٩٥٦ م .

٢ — وهى ترد على الذين يزعمون أن الرواية التاريخية ، إنما تناسب الأديب فى بداية مشواره الروائى لسهولة اختيار مادتها ، وضعف الخيال فيها . وهاهو باكثير يكتبها قبل وفاته — رحمه الله — بأربع سنوات . ولم يكتب رواية غير تاريخية إلا « ليلة النهر » . وهى أضعف رواية — فنيا وموضوعياً — .

٣ — ويرى باكثير أن المادة التاريخية أفضل من المادة المعاصرة ، فى إيصال الهدف الفنى : « إن الفن عمومًا ، والفن المسرحى خصوصًا ينبغى عندى أن يقوم أكثر ما يقوم على الرمز والإيحاء ، لا على التعيين والتحديد ، فتكون الحقيقة التى يصورها العمل الفنى ، أوسع وأرحب من الحقيقة التى يمثلها الواقع .

وأحداث التاريخ تعين الكاتب على بلوغ هذه الغاية أكثر مما تعينه أحداث الجيل المعاصر ، لأن أحداث التاريخ قد تبلورت على مر الأيام فاستطاعت أن تنزع عنها الملابسات والتفاصيل التى ليست بذات بال من حيث الدلالات التى يتصيدها الكاتب للوصول إلى الهدف الذى يرمى إليه فى عمله الفنى .

حقا إن أساس الفن هو الاختيار ، والفنان يستطيع أن يختار من المادة التى يجبل منها موضوعه العناصر التى يراها ذات دلالة ويطرح ما ليس كذلك ، سواء كانت هذه المادة من التاريخ أو من الحياة المعاصره ، غير أن التاريخ للسبب الذى أشرنا إليه آنفا أعون على هذا الاختيار المطلوب من الحياة المعاصرة التى يصعب تخليصها من الزوائد والفضول الخالية من

الدلالة التى يقصدها الفنان » ــ فن المسرحية من خلال تجاربى الشخصية ، ص ٣٩ ــ ٤٠ .

أعتقد أن هذا المفهوم النظرى ، تعضدة التجربة العملية للروائى باكثير ، يدعوان النقاد لإعادة النظر فى مفهوم الرواية التاريخية ، وفى دراستها ــ كذلك ــ دراسة جادة .



ومن ملامح التطور الفنى ــ لدى باكثير ــ فى هذه الرواية ، أن البطل « مصعب بن الزبير » ، قد حظى باهتمام الكاتب ، اهتمامًا كبيرًا ، إذ استغنى المؤلف عن الجانب الشكلى لشخصية البطل ، وركّز على الجانب الباطنى ، حيث يدور الصراع الداخلى بين حب مصعب لنسائه الأربع ، وبين واجبه إزاء أخيه عبد الله ، خليفة المسلمين فى مكة ــ فى مواجهة خصومه كالخوارج والمختار، وبنى أمية فى الشام . وتبلغ المأساة ذروتها حين يدفعه حبُّه لزوجته « سكينة بنت الحسين » ، وواجبه لأخيه إلى مقاتلة صديقه ، ورفيق صباه « عبد الملك بن مروان » ــ خليفة المسلمين فى الشام ــ . وكان مصعب حريصًا على تجنب هذه المواجهة .

ويوظف « المنولوج الداخلى » فى الكشف عن أثر هذا الصراع فى نفس البطل توظيفًا ، قل ما نجده فى الرواية التاريخية .

٣

ومن مظاهر التجديد أيضًا الاقتصاد البارع فى الحدث التاريخى، إذ تنتهى الرواية قبل وقوع المواجهة العسكرية بين جيش العراق بقيادة مصعب ، وجيش الشام بقيادة عبد الملك ، ذلك أن هذا الحدث ـــ لو حضر ــ لن يقدم شيئا جديدًا . فكل ما أراده المؤلف قد تحقق : تصوير الصراع فى نفسية هذا البطل . استعراض أسباب النصر ، وأسباب الهزيمة ؛ فسياسة عبد الملك الحكيمة ، وكرمه يقودانه إلى النصر ، وسياسة عبد الله بن الزبير الهوجاء ، وبخله يقودانه إلى الهزيمة . فنتيجة المواجهة العسكرية أصبحت معروفة لدى القارئ ، فما الداعى لتفصيلها؟ . ونهاية البطل كذلك ، فما الداعى لمواصلة السرد حتى موته ؟.

٤

ولقد تطورت شخصية المرأة كذلك . فهذه « سُكَينة بنت الحسين » تناقش زوجها فى أمور السياسة . بل ربما تزوجته لهدف سياسى بحت ، هو الثأر لمقتل أبيها . فظلت تدفع زوجها لمقاتلة صديقه عبد الملك ،

لتشفى غليلها من قتلة أبيها من بنى أمية .

٥

وأخيراً إن التنبؤ بهزيمة حزيران ١٩٦٧ م ، واضح جدًا كمغزى رئيسى لهذه الرواية . فما أشبه سياسة جمال عبد الناصر بسياسة عبد الله ابن الزبير : البخل ، تحويل الأصدقاء إلى أعداء ، الاستبداد بالرأى . تلك هى معالم الهزيمة فى كل معركة ، يهديها باكثير لكل حاكم ، فى كل مكان وزمان ، عبر هذه النهاية المفتوحة لهذه الرواية . ولا يسعنا إلا أن نردد مع مصعب :

« آه ما أجمل الحياة فى ظل السلام حيث لا حرب ولا خصام » .

أبو بكر البابكرى .

القاهرة ٥ / ١ / ١٩٩٣ م

الفارس الجميل

هذه معالم مدينة البصرة تلوح له فى الأفق من بعيد . وجواده ينطلق به نحوها ينهب الأرض ويسابق الريح كأنما له هو أيضا حبيب فى البصرة يجرفه الشوق إليه . إن هى إلا لحظات ويدخل أحب مدن الأرض إلى نفسه لأن فيها أحب نساء الأرض إليه .. سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة بن عبيد الله .

لقد انطلق من الكوفة وقلبه مشدود إلى زوجتيه هاتين ليقضى بينهما بضعة أيام ينسى فيها القتال والنزال ويستمتع فيها بأروع آيات الجمال والدلال . ولكنه لا يدرى بأى هاتين يبدأ وعلى أى منهما ينزل أول ما ينزل . إنه مشتاق إليهما معا فياليته يستطيع أن يلقاهما معا ويستريح !

وها قد دنت المدينة وأوشك أن يدخلها و لم يفصل فى هذه المسألة ويقضى فيها بقرار .. سُكَينة أم عائشة ؟ . عائشة أجمل ولكن سُكَينة أملح فياويح قلب ضاع بين الملاحة والجمال .

وأحس حينئذ برغبة خفية فى أن ينهنه شوقه قليلا ويؤخر دخول المدينة ما أمكن حتى ينتهى إلى قرار لا يندم عليه فيما بعد . وإنه ليعجب من نفسه

كيف يتهيب الفصل فى هذا الأمر وهو المقدام الجسور الذى لا يتردد فيما يعرض له من شئون الحرب والقتال فيفصل فيه برأى قاطع ويقدم على تنفيذه بعزيمة لا تلين دون تهيب لما يسفر عنه من العواقب .

سكينة أولا أم عائشة ؟ إن بدأ بسكينة فماذا يقول لعائشة وإن بدأ بعائشة فماذا يقول لسكينة ؟ .. إن فى وسعه أن يتفادى من هذا الحرج بأن ينزل عند إحدى زوجتيه الأخريين ، عند أمة الحميد بنت عبد الله بن عامر بن كريز أو عند ابنة خالة الرباب بنت ريان بن أنيف . فسيجد عند هاتين ما يحب دون أن يخشى من إحداهما لوما أو تقريعا وإنهما لجميلتان أيضا وإنه لمشتاق إلى لقائهما كذلك ولكن المشكلة ستبقى قائمة بعد ذلك أيزور عائشة أم سكينة ؟

وإنه لفى حيرته هذه إذ دخل المدينة دون أن يشعر وانطلق به الجواد فى شوارعها وأزقتها حتى وقف به تحت دار سكينة بنت الحسين . ورن صوت إحدى جواريها فى الدار وهى تقول .. مولاتى . مولاتى هذا سيدى مصعب بن الزبير قد وصل !

ويل له أيجئ . إلينا هكذا فجأة دون أن يخطرنا أو يبعث إلينا رسولا ؟ انزلى إليه يا أميمة وقولى له ينتظر أسفل الدار حتى آذن له بالصعود .

ـــ فيم يا مولاتى ؟ لقد آثرنا على غيرنا بالقدوم علينا فلا يحق لك أن تعامليه هذه المعاملة .

ـــ ويلك إنما نزل عندنا ليلقانى بغبار سفره قبل أن أصلح حالى ثم يلقى ابنة طلحة غدا وقد اغتسل وتهيأ وتهيأت له .

ــ أما إنك لتظلمينه يا مولاتى دائما ..

ــ اسكتى أنت .. ما يدريك . انزلى فقولى له ما قلت لك .

ونزلت الجارية لتخبر سيدها بما قالت سيدتها فوجدته بين خدمه ومواليه يقرمون بخدمته ويعدون له الحمام والثياب والطيب كما أمرهم . فقد رأى هو ألا يلقاها إلا بعد أن يزيل عنه غبار السفر ويستبدل بثيابه ثيابا جديدة . فرجعت إلى مولاتها وأخبرتها بما شهدت وقالت لها ألم أقل لك يا مولاتى إنك تظلمينه كثيرا .

قالت لها سكينة : انتظرى حتى يفرغ من زينته فقولى له حينئذ أن ينتظر قليلا حتى آذن له بالصعود .

ــ ويحك يا مولاتى كنت كثيرة الشوق إليه حتى إذا جاءك تتدللين عليه . فنهرتها سكينة قائلة : افعلى ما أمرتك ولا تراجعينى .

وانتظر مصعب طويلا وكلما استأذن للصعود قيل له انتظر،حتى ضاق صدره وفرغ صبره فصعد إليها ووقف بباب غرفتها فوجدها جالسة بين جواريها وقد فرغت من زينتها .

فعجب من أمرها وكان يظنها ما تزال تتزين ، فاقتحم الباب فلما رأته الجوارى انسللن من الحجرة وخرجن .

ــ مصعب ! أتجرؤ أن تدخل عندى قبل أن آذن لك ؟

ــ ويحك يا سكينة أفى الحق أن تدعينى أتحرق شوقا إليك وأنت جالسة هنا تتحدثين إلى جواريك ؟

ــ كان عليك أن تبعث إلينا رسولا قبل قدومك .

ـــ إنما قدمت لبضعة أيام ثم أعود إلى الكوفة .

ـــ تعود إلى الكوفة ؟

ـــ نعم لأنتهى من أمر المختار بن أبى عبيد .

ـــ ألم تنته من أمره بعد ؟ لقد ظننت أنك قتلته واسترحت منه .

ـــ لم أتمكن من قتله بعد ولكنى هزمته وفرقت رجاله .

ـــ والله ما صنعت شيئا ما بقى المختار بن أبى عبيد . والله لبئس زوج الحرة أنت .

ـــ فيم يا سُكَين ؟

ـــ تترك ميدان القتال لتسكن إلى حلائلك .

فدنا منها وضمها إلى صدره وهو يقول ...

فتملصت من يده وهى تقول ..

ـــ أهذا قدرى عندك يا ابن الزبير أن تجعلنى سببا لتركك ميدان القتال ؟

ـــ من قال لك إننى تركته ؟ لقد لجأ الخبيث بعد انهزامه إلى دار الإمارة بالكوفة فأحكمت عليه الحصار ولا سبيل أمامه إلا أن يموت أو يستسلم . أفلا يحق لى ريثما يتم ذلك أن أجىء فاستروح أنفاس الأحبة ؟

وأهاجت هذه الكلمة شجون سكينة وأثارت غيرتها وهمت أن تسأله من الأحبة الذين يعنيهم لولا أنها أشفقت أن يكون فى اعترافها بالغيرة من ضرائرها ما ينقص من مقامها فأعرضت عن هذا الصدد وقالت :

ـــ ما هكذا يصنع من يعشق معالى الأمور .

قال لها مداعبا :

ـــ كيف يصنع إذن ؟

ـــ لا يلتفت إلى قريب أو حبيب ولا يستنيم لراحة أو دعة حتى يجهز على عدوه ويفرغ منه .

وحلا له أن يمضى فى دعابته فقال لها :

ـــ إن أردت الحق يا ابنة الحسين فإنى لا أعتبر المختار بن أبى عبيد ذلك العدو الذى أحرص كل الحرص على قطع دابره .

ـــ ماذا تقول ؟

ـــ إن له يدا عندى لا أنساها له أبدا :

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ أعنى ما كان من تشيعه لآل بيتك ومطالبته بدم أبيك .

ـــ لا تحاول أن تخدعنى . ما أنت إلا آلة فى يد أخيك أبى خبيب فلو أمرك بقتلى لفعلت .

ـــ ويحك يا سكين . أما تكفين أبدا عن تنديدك بأخى عبد الله بن الزبير وبغضك إياه ؟

ـــ لا أستطيع أن أنسى أبدا أنه هو الذى دفع أبى إلى الخروج وحرضه عليه ، وهو يعلم ما هو صائر إليه ليخلو له الجو فى مكة .

ـــ سبحان الله . أتحملين أخى تبعة أبيك ؟ ألم يكن على أبيك أن ينظر إلى نفسه ؟ وهل كان لعبد الله سلطان عليه ؟ لقد نصحه الكثيرون ألا يخرج إلى أهل العراق ولا يعتمد عليهم فما انتصح لأحد . ولقد صمم هو على

ذلك وما شجعه عبد الله إلا لأنه يأبى الضيم مثله فوافقه على رأيه حينما خالفه الآخرون .. أفآسفة أنت يا سكين على أن لقى أبوك تلك الميتة المجيدة الرائعة ؟ وتأثرت سكينة لذكرى أبيها الشهيد فتلألأ الدمع فى عينيها ولكنها تجلدت وقالت : كلا لست آسفة لأمر قد جرت به المقادير ولكنك حاولت أن تخدعنى فى أمر هذا المنافق المختار بن أبى عبيد .

فطفق يذكر لها أنه وهو يقاتل المختار أحس حقا برقة تعطفه عليه من أجل انتصاره للحسين أبيها وسعيه للقضاء على قتلته ، ثم قال لها :

— أو ما تشعرين أنت يا سكين بشىء من العطف عليه ؟

ولم تكد تسمع هذا منه حتى نضبت من وجهها معانى الرقة والرثاء وحل محلها الجد والصرامة ، وصاحت :

لا والله ولا خردلة . إن دم الحسين لا ينبغى أن يطالب به رجل منافق مثله اتخذ من قضية الحسين سببا لبلوغ ما يصبو إليه من أخذ الحكم لنفسه ، ثم أضاف إلى نفاقه الكفر بالله وادعاء الوحى ، فقد والله أضعف قضية الحسين . ولقد كان ناصبيا من قبل يكره أهل البيت ثم تصنع حبهم من أجل مآربه الخسيسة .

— صدقت والله يا سكين . لأقاتلنه منذ اليوم قتال من لا يرحمه ولا يرفق به من أجلك ؟

— من أجلى ؟

— نعم . وجذبها إلى صدره ليعانقها فانفلتت عنه وهى تقول : فما بقاؤك ؟ انطلق فعد إليه .

ــ دعينى أقضى هذا اليوم عندك يا حبيبة القلب .

ــ لا والله . لا مكان لك عندى حتى تفرغ من عدو الله وتقتله .

ــ أشتهى أن أتزود منك قبل أن أنطلق إليه فلا أعود إليك إلا برأسه

فأجابته قائلة فى صرامة : هيهات . لا شىء لك عندى حتى تعود بعد أن تقتله .

ــ أى حبيبتى إن دلالك حبيب إلى نفسى . ولكنك أسرفت فيه حتى ضاق به صدرى . فبالله ألا ما اقتصدت .

فثارت ثائرتها عندئذ وقالت إن كنت تظن هذا دلالا منى فقد أخطأت . ماذا دهاك يا ابن الزبير حتى عدت لا تفرق بين الجد والدلال ؟

فنظر إليها مليا ثم قال :

ــ إذن أذهب إلى ضرتك عائشة بنت طلحة .

فصاحت مغضبة .

ــ اذهب إليها فإنها بك أشبه .

ــ هى خير منك .

ــ لا غرو أن تكون أجمل منى فى عينك لأنها أشبه بك . ماذا تنتظر ؟ انطلق إليها الساعة فإنها تنتظرك .

فأخذ مصعب يتودد إليها ويترضاها قائلا : كلا والله ما هى بأفضل منك . قد تكون أجمل فيما يرى الناس ولكنها ليست بأملح منك يا سكينة يا أحسن خلق الله .

صدقيني يا سكين .. هذه الجمة وحدها عندى بألف عائشة !

وتهلل وجه سكينة عند ذكر الجمة التى اشتهرت بها ، فأخذت بسمة صغيرة تنداح حول شفتيها مما شجع مصعبا على الاسترسال فى الحديث ، فطفق يقص عليها كيف أرادت عائشة ذات يوم أن تقلدها فى جمتها فلم تفلح . فأخذت تسبها وتقول : وددت لو تقص جمة سكينة وأعتق جميع إمائى !

فلم تستطع سكينة أن تغالب ضحكها فاستضحكت حتى بدت ثناياها الغر . فتشجع مصعب ومد يده إلى شعر رأسها فأخذ يجليها فى خصلاته فى رقة وحنان . فلما رآها استنامت له تشجع مرة أخرى فاسترق منها قبلة ولكنه لم يكد يفعل ذلك حتى استردت سكينة نفسها فدفعته عنها وهى تقول :

ـــ إياك أن تظن إنك خدعتنى . ارجع إلى حيث كنت فافرغ من عدو الله ثم عد إلى . أو أذهب الساعة إلى عائشة ثم لا تعد إلىَّ أبدا .

وخرج مصعب غاضبا من دارها وتردد قليلا فى الطريق . أيذهب إلى عائشة بنت طلحة أم إلى إحدى زوجتيه الأخريين ؟ الغضب والشوق يدفعانه إلى دار عائشة . ولكن هاجسا فى ضميره ينذره ألا يفعل لئلا يلقى منها مثل ما لقى من سكينة . غير أنه لم يستطع مغالبة شوقه إلى عائشة ولا رغبته فى إغاظة تلك التى آثرها بالنزول عندها فردته كسيرا .

و لم يكد يدخل دار عائشة حتى استقبلته مرحبة باسمة ووجدها قد ازينت كأنما كانت فى انتظاره ، ووجد كل شىء فى الدار مهيأ لاستقباله

فعجب من ذلك وتوجس خيفة ، ولكن ما لقيه من حسن استقبالها قد أعاد الطمأنينة إلى نفسه ، فاندفع يعانقها ويقبلها وهى تستسلم له وتبتسم .. فلما قضيا حق اللقاء الأول دعته إلى مجلسها فسألته هل فرغ من قتال عدوه المختار بن أبى عبيد ؟

فلما أخبرها إنه لجأ بعد هزيمته إلى دار الإمارة حيث تحصن بها وحيث ضرب هو عليه الحصار ، قالت له : كيف تركته قبل أن تفرغ من أمره !

ـــ أردت أن أتزود منك ومن حسنك يا عائش .

ـــ هلا تزودت من ذات الجمة ؟

وتردد قليلا فى جوابها فقد أحس من لحن قولها أنها ربما علمت بما كان من نزوله عند سكينة وإنها تعاقبه على ذلك ، فقال لها :

ـــ أليس من حقى أن أوثر من أشاء على من أشاء ؟

قالت : بلى إن ذلك من حقك ولكن مَن مِن نسائك آثرت يا مصعب ؟

ـــ قد علمت إننى آثرتك أنت يا عائشة .

ـــ كذبت .. ما جئتنى إلا لما طردتك هى من بيتها .

ـــ إنما عرجت عليها مسلما و لم أقصد أن أقيم إلا عندك .

ـــ ويلك أتحسبنى لا تأتينى أخبارك !

ـــ من أخبرك ؟

ـــ لا شأن لك .

فلبث هنيهة فى حيرة لا يدرى ماذا يقول ثم تمتم قائلا ..

ــ والله ما أحسبكما إلا تواطأتما عليّ !

ــ على أى شىء تواطأنا ؟

ــ على ألا تقبلانى حتى أفرغ من المختار بن أبى عبيد .

ــ ويحك يا مغرور ! كيف نتواطأ وكلتانا لا تقبل الأخرى ؟ ولكنك أخلفت ظن كل منا .

ــ كيف يا منية النفس ؟

ــ كنا نظن أنك تعشق معالى الأمور . فإذا أنت زئر نساء لا تطمح نفسك إلى أبعد من شهواتك .

فتململ مصعب ضجرا وقال :

ــ ويلى منكما .. أنت أيضا تذكرين معالى الأمور !

فصاحت به مغضبة : ويلك ماذا تظننى ؟ تذكر يا مصعب أننى ابنة طلحة بن عبيد الله .

فقال لها معتذرا : ويحك إنى ماذكرت شيئا عن أبيك .

ــ لست ابنة طلحة بن عبيد الله إن قبلتك عندى وقد طردتك ذات الجمة من بيتها .

وأدرك مصعب بعد لأى أنها لن تقبله أبدا ، فخرج من عندها كالشريد وقد تضاعف همه وغضبه ، فانطلق إلى بيت زينب ابنة ريان بن أتيف فتلقته بالبشاشة وأكرمته وواسته .

ــ الحمد لله الذى أرضاك عنا يا مصعب .

ــ يا ابنة الخال ما يعدل قلبى بك بديلا . أنت والله نعم الزوج

الودود .

ويتشقق الحديث بينهما فتقول له : يا ابن العمة إنك لن تجد مثلى حبا لك وعطفا عليك . ما من واحدة من نسائك إلا تزوجتك لغرض فى نفسها ما خلاى . سُكَينة تزوجتك لتثأر لأبيها من أعدائه الذين قتلوه ، وعائشة بنت طلحة أجمل نساء عصرها إنما تزوجتك لتباهى النساء بجمالك وفضلك ولو وجدت أجمل منك وأفضل لما رضيت بك . أما التى تحبك لذاتك يا مصعب فهى أنا ولا أحد غيرى . والله يا مصعب لو قد شوه الله وجهك أو قطع فى الحرب أطرافك ما تغير حبى لك .

وكان مصعب قد عزم أن يقضى بقية الليل عند زينب وألا يظهر لأصحابه إلا فى صباح اليوم التالى ، غير أنه اشتاق آخر الليل إلى لقاء صديقه الأحنف بن قيس فهم أن يرسل فى طلبه ، ولكنه خشى أن يزعجه ذلك فقرر أن يذهب إليه بنفسه . فلما رأته زينب يريد الخروج وقع فى نفسها أنه ربما يريد الذهاب إلى إحدى زوجاته فلم تقل له شيئا ، بل ساعدته على ارتداء ملابسه . وأحس هو بما يدور فى خلدها فأكد لها أنه ذاهب إلى أحنف بن قيس فقالت له حينئذ . هلا زرته فى الصباح فإنه لابد الآن نائم ؟

فأجابها بإنه لا يستطيع الصبر عنه ، وأنه يعرف من عادة الأحنف أنه ينام أول الليل ويتهجد آخره .

وخرج متوشحا سيفه حتى أتى بيت الأحنف فطرق بابه ، فوجده قائما يتهجد ، ودعاه إلى الجلوس وأخذ يسأله عن أحوال الكوفة وأخبار المختار بن

أبى عبيد ، فحدثه مصعب عن كل ذلك بإسهاب ، فلما انتهى من ذلك طفق يقص عليه ما كان من سكينة وعائشة معه .

فتبسم الأحنف ضاحكا وقال : ويلك يا ابن الزبير ، ما أراك جئتنى فى آخر الليل إلا لتقص على أخبارك مع نسائك .

— أجل يا أبا بحر فإنى منهن فى حيرة وكبد . وأنت خير من يرشدنى فى هذا السبيل .

وسكت الأحنف قليلا ، ثم أخذ فى الحديث فإذا هو يشرح له من أسرار المرأة عجبا ، ويكشف له دخيلة كل واحدة منهن . فأما سكينة فإنها تعلم أن غريمتها أجمل منها وأنها لا تستطيع منافستها فى قلبك ، ولا تصدق أبدا أنك تؤثرها عليها . فلما قدمت عليها ظنت أنك بدأت بها لتختم بعائشة بعد أن تكون قد أزلت عنك غبار السفر ، وتكون هى قد تهيأت لك بما يصلحها من الزينة . فرأت أن تتخذ من قضية أبيها الحسين وحرصها على أن تثأر له من أعدائه وقتلته ، سببا تدارى به حقيقة ما بنفسها .

وأما عائشة : فلو توجهت إليها بادىء ذى بدء لما ردتك ، ولكنها حزرت أنك ذهبت إلى ضرتها فاستنكفت أن تقبلك من حيث ردتك غريمتها فتكون أهون عندك منها .

قال مصعب : لكن كيف حزرت ذلك وقد حرصت على ألا يعلم بقدومى أحد ؟

قال الأحنف : إن ذلك عليها ليسير ، فقد كنت تحمل فى وجهك وبين

عينيك دلائل اتهامك . وإن المرأة تدرك بغريزتها فى هذه الشئون ما لا يدرك الرجل .

ـــ لكنها زعمت لى أن أحدا أخبرها بذلك ، وهذا ما حيرنى .

ـــ إنما زعمت ذلك لتستدرجك إلى الإقرار بالحقيقة ، وقد فعلت .

قال مصعب : إن يكن ما تقول حقا فقد خدعتنى الخبيثة وغلبتنى .

قال الأحنف : ويلمك بطلا يا مصعب ، لو لم تغلبك رقتك هذه للنساء ، إذن لسقت الناس جميعا بعصاك .

ـــ هيهات يا أبا بحر . ذاك أخى عبد الله أمير المؤمنين .

ـــ كلا يا مصعب . أخوك يعوزه كثير مما عندك . ليس له محياك هذا الذى يشبه وجه ملك كريم ، وليس له كرمك الفياض الذى لا يزيده غناك ولا ينقصه فقرك ، ولا تميز فيه بين عدو وصديق ، ولا بين غنى وفقير . أنت يا مصعب لا عيب فيك إلا أنك زئر نساء .

ثم أخذ الأحنف يلومه على تركه الكوفه وفيها عدوه لم يفرغ منه ، وقدومه البصرة لغير شىء إلا أن يلقى نساءه ، ومن وراء ذلك كله العدو الأكبر عبد الملك بن مروان بالشام . قال مصعب : دع عنك عبد الملك فما بقيت على العراق لن يتصدى لى بأى مكروه .

ـــ لا يغرنك يا مصعب سكوته عنك حتى اليوم ، فإنما يشغله عنك الآن أمر ابن عمه ومنافسه عمرو بن الأشدق . ولئن فرغ منه وسيفرغ منه وشيكا ، ليأتين إليك ولينازلنك .

ـــ ما إخاله راغبا فى قتالى يا أبا بحر .

ـــ لمكان الصداقة القديمة التى بينكما ؟

ـــ نعم .

ـــ ويحك يا ابن الزبير . إنك لا تعرف عبد الملك .

وانتهى الحديث بينهما بأن أشار عليه الأحنف أن يرجع إلى الكوفة فى الحال ويستصحب معه إحدى زوجاته ، حتى لا تنازعه نفسه إلى ترك الكوفة قبل أن يقضى على عدوه المختار بن أبى عبيد .

وعمل مصعب بمشورة صديقه الأحنف ، فرجع إلى الكوفة مستصحبا معه زوجتيه زينب وأمة الحميد ، وقد قصد بذلك أن يؤدب سكينة وعائشة فيما لقيتاه ذلك اللقاء غير الجميل .

وشدد الحصار على المختار بن أبى عبيد فلم يدع شيئا يتسرب إليه من قريب أو من بعيد ، وأمر رجاله فتعقبوا فلول أصحابه فى كل مكان . ولكن دار الإمارة التى تحصن فيها المختار وأصحابه كانت منيعة الجانب إذ تقع فى مرتفع من الأرض ، تحوطها الأسوار العالية من كل ناحية ، وعليها الحصون والأكوات التى يصعب الدنو منها أو اقتحامها ، فلم يكن لمصعب بد من الانتظار حتى ينفد ما فيها من المؤن والذخائر فيخرج من فيها مستسلمين .

وقد اقتضى ذلك منه أربعة أشهر أبدى فى خلالها مصعب من الصبر والشجاعة آيات . حتى لقد غامر ذات ليلة فأراد أن يتسلق الأسوار فى جماعة من رجاله ، ولكن رجال المختار فطنوا لهم فامطروهم بالسهام وألقوا عليهم الحجارة ، فقتل منهم من قتل وأصيب من أصيب وكان

نصيب مصعب من ذلك شجة فى رأسه من حجر ألقى عليه .

ولامه وجوه أصحابه على ما كان من تهوره ، وشددوا عليه فى ألا يعاود مثل هذا السبيل . وقالوا له إننا فى السعة وهم فى الضيق ، فأى شىء يحملنا على نفاد الصبر والضيق بالمطاولة ؟

ونزل مصعب على رأيهم ولكن على مضض ، فقد ضاق صدره من طول الحصار ، والوقوف دون الأسوار لا يستطيع أن ينال ممن خلفها شيئا . وكلما تذكر سكينة وعائشة هاجت شجونه واشتد حنينه ، ولجت به الرغبة فى أن ينتهى من أمر المختار بأى سبيل وفى أسرع وقت .

لقد قصد أن يؤدبهما حين استصحب معه زوجتيه الأخريين ليستغنى بهما عنهما ، ولكنه لم يلبث حين تمادى به الحال أن شعر أنه إنما كان يؤدب نفسه بابتعاده عنهما كل هذا الأمد الطويل .

ولقد هم غير مرة أن ينطلق إلى البصرة من شدة شوقه إليهما ، لولا خشيته أن يلقى منهما مثل ما لقى فى المرة الأولى ، وخوفه كذلك من عتاب صديقه الأحنف بن قيس .

وضاق الحال بالمختار لما انقضت أربعة أشهر على حصاره ، ونفدت المؤن التى عنده ، فأقدم على مغامرة جريئة أذهلت أصحابه وأصحاب مصعب جميعا . ذلك أنه خرج وحده من الحصن متسللا فى الليل حتى أقبل على أصحاب مصعب المحاصرين لدار الإمارة ، فأعلن لهم نفسه وقال لهم : قودونى إلى أميركم لأتحدث إليه . فهم بعضهم بقتله لولا أن صاح فيهم : ويلكم إنى جئت وحدى مستأمنا فلا تقتلونى حتى تروا رأى

أميركم ، إن كان له عندكم قدر ومكانة ؟

فلما جيء به إلى مصعب أحسن مصعب لقاءه ، وأمر رجاله أن يدعوهما وحدهما ، فأشفقوا أن يكون جاء لاغتيال صاحبهم فجردوه من سيفه ، ولكن مصعبا نهرهم وقال لهم :

ـــ ردوا سيفه إليه ودعونى وحدى معه .

فلما اختليا قال المختار :

ـــ إن أصحابك لا يعرفون مروءتك يا مصعب ، ولا يقدرونك حق قدرك .

قال مصعب :

ـــ بلى ولكنهم حرصاء علىّ فلا لوم عليهم . فقل لى ماذا تريد ؟

ـــ جئت أعرض عليك أحد أمرين : الأول أن تتركنى وأصحابى فنمضى جهة الشام لنقاتل أعداءكم آل مروان .

ـــ كلا يا ابن أبى عبيد ، ما يكون لى أن أحاصرك أربعة أشهر حتى إذا نفدت المئونة من عندك ، أطلق سراحك لتمضى حيث تشاء .

ـــ أعاهدك لأقاتلن آل مروان فأشغلنهم عنك .

ـــ ليس بينى وبين آل مروان شيء حتى اليوم . ولئن قاتلتهم فلن أستعين عليهم بعدوى ؟

ـــ إذن فإنى أعرض عليك الأمر الثانى .

ـــ ما هو ؟

ـــ أن تبارزنى بالسيف ، فإما قتلتنى وإما قتلتك .

فقهقه مصعب ضاحكا .

ـــ ما يضحك ؟

ـــ إنك قدرت فى نفسك أننى شجاع ، وأن أريحيتى تمنعنى من رفض طلبك هذا خشية أن أجبن . ولكن فاتك أننى لا أبارز رجلا قد يئس من الحياة فلا يبالى أيقتل أم يقتل .

ـــ إذن فقد جبنت عن لقائى .

ـــ إنك تعلم أننى لست كذلك ، وأنك تعلم أيضا أن أحدا لا يمكن أن ينسب إلى الجبن .

ولو دعوتنى إلى المبارزة من قبل لأجبتك .

ـــ إذن فاقتلنى الساعة .

و لم يكد المختار يتفوه بهذه الكلمة حتى وثب مصعب فى سرعة البرق فانتزع سيف المختار من يده . فامتقع وجه المختار وقال له : ما حملك على هذا يا مصعب ؟

فصفق مصعب وهو يقول : كنت أظنك أكرم من هذا . لقد أردت أن تغدر بى يا لكع ؟

وأقبل رجال مصعب لما سمعوا تصفيقه فقال لهم : خذوا هذا الغدار فأوصلوه إلى مأمنه .

فطفق المختار يحلف بالله ما نوى شيئا مما ظنه به .

فقال مصعب : وهل لك يمين يا كافر ؟ خذوه فأوصلوه إلى مأمنه .

قالوا : دعنا نقتله أيها الأمير .

ـــ لا والله لا أغدر كما تفعل الأعاجم .

ـــ إنه قد أراد أن يغدر بك .

ـــ ذاك شأنه هو لا شأنى . اغربوا به من وجهى .

* * *

وما راع الناس فى اليوم التالى إلا أن خرج المختار مستبسلا فى نفر من أصحابه ، فقاتلوا بشجاعة منقطعة النظير حتى قتلوا .

وجىء بجثة المختار إلى مصعب فأمر بقطع رأسه وكفه . أما الرأس فبعث به إلى أخيه عبد الله بن الزبير ، وأما الكف فأمر بصلبها على باب مسجد الكوفة .

و لم يستطب مصعب أن يصبر حتى يرى ما يكون من أصحاب المختار الفارين منهم والمستخفين ، إذ وكل ذلك إلى أصحابه وانطلق هو على الفور إلى البصرة ليلقى حبيبتيه .

و لم يتردد فى هذه المرة ، فقد صمم على أن ينزل أولا بدار عائشة بنت طلحة ، فأرسل إليها رسولا يخبرها بقدومه .

واستشارت عائشة مولاتها فيما تفعل بمصعب ، فأشارت عليها بأن تحسن لقاءه فى هذه المرة وتهنئه بالفتح ، حتى لا يتحول إلى دار سكينة بنت الحسين .

فقالت عائشة : أجل والله لأبالغن فى الحفاوة به ، ولأغيظن ذات الجمة .

و لم يكد مصعب يدخل الدار ، حتى استقبلته عائشة بزينتها وجواريها وهى تتهلل بشرا وتقول : مرحبا بك يا سيد شباب العرب .

ثم قادته إلى مخدعها فأخذت تقبله وتمسح التراب عن وجهه .

قال لها : أمهليني يا عائشة حتى أغتسل وأتطهر ، فإنى أشفق عليك من رائحة الحديد .

قالت : لهو والله عندى أطيب من ريح المسك .

وقضى مصعب يومين عندها لم تدع له فرصة خلالهما ليقابل أحدا من أصحابه ، فقد كانت تريه من زينتها فتونا ومن رقتها ودلالها فنونا ، حتى إنها لبست له ثلاثين حلة كلما خلعت واحدة لبست الأخرى .

فلما كان اليوم الثالث أراد أن يخرج إلى أصحابه ، فقالت له : كلا والله لا تخرج اليوم من الدار أبدا . ولكن ادع من تشاء من أصحابك فليحضروا مجلسك هنا ، فإنى دعوت عزة الميلاء لتغنى لنا وتطربنا .

ودعت هى طائفة مختارة من نسوة قريش ، فلما حضرن خلعت على كل واحدة منهن خلعة تامة من الوشى والخز ، وأجلستهن فى مجلس قد نسقت فيه الرياحين والأزهار ، وصفت على موائده أطباق الفواكه ، وعبقت فيه مجامر العود والند .

وكذلك فعلت فى مجلس الرجال الذى يحاذيه ، والذى تفصل بينه وبين مجلس النساء الستور والحجب . وقد دعا مصعب جماعة من أصدقائه وأصفيائه فجلسوا معه فى أنس وصفاء ، وتذاكروا معه مختلف شئون الدولة وشئون الناس ، والساقى يدور عليهم بأكواب الأشربة من ورد ورمان وتفاح . ثم مد الخوان بالشواء وألوان الأطعمة ، فأكلوا هنيئا مريئا .

فلما فرغوا من ذلك سمعوا من جانب النساء رنات المزاهر والعيدان

وصوت عزة الميلاء يتغنى فى شعر امرئ القيس ، حتى إذ وصلت إلى قوله :

وثغر أغر شتيت النبات لذيذ المقبل والمبتسم
وما ذقته غير ظن به وبالظن يقضى عليك الحكم

استخف مصعبا الطرب ، فوثب إلى حيث دنا من جانب الستور المسبلة فصاح : يا هذه إنا قد ذقناه فوجدناه كما وصفت .

ثم التفت إلى أصحابه فقال لهم : ماذا ترون يا قوم لو دعوت لكم عزة الميلاء فغنتكم هنا بين أيديكم ؟

فاستحسن ذلك قوم وتحرج آخرون ، فلم يبال بهم مصعب ودخل إلى عائشة فقال لها : أما أنت فلا سبيل لنا إليك مع من عندك من النسوة ، وأما عزة فتأذنين لها أن تدخل إلينا فتغنينا .

قالت عائشة : حبا وكرامة يا مصعب .

ولم تلبث عزة أن دخلت إلى القوم ومعها فرقتها وقد ارتدت حلة فاخرة من الوشى والحرير كستها إياها عائشة ، فوقفت فى صدر المجلس وأخذت تداعب عودها وتصاحبها فرقتها بالمزهر والدف ، حتى إذا استوى لهن اللحن ترنم فمها بصوت يسيل عذوبة ورقة وهى تقول :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك رحمة ليس فيه جبروت منه ولا كبرياء

فطرب القوم طربا شديدا وصاحوا جميعا : أحسنت يا عزة .. بوركت يا عزة .

وكان هدف عائشة من هذا كله أن توغر صدر غريمتها سكينة ،

وتدفعها إلى مغاضبة مصعب إذا ذهب إليها . ولكن سكينة لم تشأ أن تمكنها من بلوغ هدفها ، فقد استقبلت مصعبا خير استقبال ، وأرته من ضروب الرعاية ما لم ير منها قبل ذلك قط .

حتى لقد عجب هو نفسه من ذلك . ولقد أقبل إليها حين أقبل ، وهو يزور فى نفسه كلاما يعتذر به إليها ، إذا حاسبته إيثاره عائشة بالنزول عندها فى هذه المرة . فإذا هى تتطلق له دون أن تشير إلى ما فعلته عائشة من قريب أو من بعيد ، كأن شيئا من ذلك لم يكن .

وقضى ثلاثة أيام عندها لم يشعر بمرورها ، من فرط ما كانت تحوطه به من جميل الرعاية ورقة الحديث ، وفنون التحبب والتعطف . وقد اقتصرت فى هذه المدة على ثلاث حلل ، فحلة فى الصباح وحلة بعد الظهر وحلة عند النوم . ولكنها كانت تفتن فى تصفيف شعرها افتنانا ، يضفى عليها فتنة تتجدد فى عينيه كل ساعة من ساعات النهار .

وكانت بارعة الحديث تتصرف فى فنونه تصرف الخبير ، دون أن ينفد محصولها من شعر مختار تنشده ، وقصة تحكيها ، ونادرة ترويها فى فصاحة ناصعة ، وبيان عذب لا يمل سامعه أبدا .

فلما كان اليوم الرابع قالت له : يا مصعب إنى قد قضيت مالك من حق علىّ ، فاقض اليوم ما لنفسك من حق عليك .

— ماذا تعنين يا سكينة ؟

— إنك قد فرغت من عدوك المختار بن أبى عبيد ، فامض الآن لقتال عبد الملك بن مروان ، فإنه هو الهدف .

فوعدها خيرا وقال لها : سيتم ذلك بإذن الله فى حينه .

و لم يكن فى قرارة نفسه يعنى ما يقول ، فقد كان لا يتصور أبدا كيف يحارب عبد الملك بن مروان صديقه القديم الحميم .

قالت : إذا أخرت ذلك فسيقوى عليك . إنك اليوم منتصر ورجالك منتصرون ، وحكمك نافذ على الجميع ، فامض بهم اليوم صوب الشام لقتال عبد الملك ، قبل أن تتراخى قبضتك عليهم إذا تركتهم ويعودوا للخلاف عليك والتفرق ، فإنهم أهل العراق .

وكانت قد استدعت الأحنف بن قيس إلى دارها ، فلما حضر أيدها فى رأيها وحث مصعبا عليه . وزاد على ذلك أن أوصاه بأن يكتب إلى أخيه عبد الله لينجده بجيش من عنده يلتقى به فى الطريق .

ولكن مصعبا لم يقتنع بهذا الرأى ، وأصر على أن يقدم على أخيه أولا بمكة ليستشيره فى الأمر ، وكان غرضه فى الحقيقة من ذلك أن يلتمس أى مخرج من مواجهة عبد الملك بن مروان بالحرب .

قال الأحنف : إن كنت تعتزم السفر إلى أخيك فعجل به .

ثم اقترح عليه أن يستقر بالكوفة ، ويأخذ زوجتيه سكينة وعائشة إليها حتى يستطيع التفرغ لما هو بسبيله .

قال مصعب : ما إخالهما ترضيان بذلك .

قالت سكينة : بل أرضى يا مصعب . والله لو دعوتنى لمصاحبتك إلى الشام فى قتال عبد الملك لفعلت .

٢

وارتحل مصعب بزوجتيه إلى الكوفة ، ثم لحق به الأحنف بعد ذلك .
وكان فى نية مصعب أن يعجل بالسفر إلى مكة للقاء أخيه وعرض الأمور عليه ، لولا أن واجهته أول ما قدم الكوفة ، مشكلة أصحاب المختار .
فإنهم لما سمعوا بمقتل صاحبهم ضاق بهم الأمر ، ولم يجدوا لهم مأمنا إلا أن يتوافدوا إلى الكوفة ليستسلموا لمصعب وينضموا إليه ، عسى أن يقبلهم ليقاتلوا معه عبد الملك بن مروان

قالوا لمصعب : لا تقتلنا واجعلنا فى مقدمة جيشك لقتال عبد الملك ، فإن ظفرنا فلكم ، وإن قتلنا لا نقتل حتى نقتل منهم طائفة وكان الذى تريد .

فرق لهم وكاد يجيبهم إلى ما طلبوا ، لولا أن جماعة من كبار أصحابه ينزعمهم عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث أبوا ذلك وقالوا : هؤلاء قد قتلوا أولادنا وعشائرنا وجرحوا منا خلقا ، فاخترنا أو اخترهم . فحار مصعب ماذا يفعل . وأشار عليه الأحنف بن قيس ألا يصغى إلى هؤلاء ، وأن يقبل التائبين من أصحاب المختار فإنهم يكرهون آل مروان ويتحرقون لقتالهم وسيكونون قوة له .

قال مصعب : لكن أصحابى سيتخلون عنى إذا فعلت .



(الفارس الجميل)

واشتد إلحاح أصحابه عليه فى وجوب قتل أصحاب المختار ، حتى ضاق بهم صدره فقال لهم : افعلوا ما بدا لكم .

وخشى هؤلاء أن يرجع مصعب فى قوله ، فانطلقوا فى الحال فذبحوا من أصحاب المختار ثلاثة آلاف رجل فى يوم واحد ، وكانت مذبحة اشمأز لها مصعب لما بلغته ، وأخذ يلوم أصحابه ويعنفهم ولكن بعد فوات الأوان .

وطفق الأحنف يلومه ويقول له : إنك بما فعلت قد أفسدت أصحابك هؤلاء عليك ، وشجعتهم على مخالفتك والاستقلال برأيهم دونك . إن هؤلاء أهل العراق لا يصلحون إلا بالشدة والحزم ، ويفسدهم اللين والمراعاة .

فاسترجع مصعب وقال : دعنى من لومك الآن يا أبا بحر ، فقد نفذ المقدور ولا سبيل إلى رد ما وقع .

ولم يكد مصعب يفيق من هول هذه الحادثة حتى واجهته مشكلة أخرى ، حينما جئ إليه بزوجتى المختار بن أبى عبيد « أم ثابت بنت سمرة ابن جندب ، وعمرة بنت النعمان بن بشير » فقيل له : يجب أن تستتيبهما فإن تابتا وأعلنتا البراءة منه أطلقتهما ، وإلا قضيت عليهما بالقتل .

فسأل مصعب الأولى عن رأيها فى المختار فقالت : ماذا تقول فيه أنت أيها الأمير ؟.

ـــ أقول إنه كافر ملحد .

ـــ قالت : فإنى أقول فيه بقولك أنت .

فأطلق سراحها .

ثم سأل الثانية عنه فقالت : يرحمه الله . لقد كان عبدا لله صالحا .

— ويلك أما تعلمين أنه كافر ؟.

— أصلحك الله أيها الأمير ، والله لو علمت أنه كافر ما أقمت عنده يوما واحدا .

— يا هذه ألا قلت كما قالت ضرتك فيه فأطلق سراحك ؟.

— أيها الأمير لعلها قالت لك ذلك فيه ، طمعا منها أن تتزوجها أنت ؟.

فضحك مصعب وقال لها مداعبا :

— وأنت أليس لك فى ذلك ؟.

— لا والله ، لا أتزوج قاتل زوجى أبدا .

فحار مصعب فى أمرها ، وأراد أن يكتب إلى أخيه عبد الله ليستفتيه فيه ، ولكن أصحابه ثاروا عليه وقالوا له : يجب قتلها أسوة بأصحاب المختار الآخرين .

قال لهم : إنها امرأة وفية لزوجها ، ولا ينبغى لها أن تقول فيه غير ما قالت .

قالوا له : لعلك أعجبك جمالها فأردت أن تستبقيها ، فإنك — ما علمنا — زئر نساء .

فنهرهم غاضبا وقال لهم : قبحكم الله من قوم سوء .. ويلكم أترون جديرا بى أن أقتل النساء ؟. اغربوا عن وجهى .

فانفضوا من عنده وهم يقولون : والله لنكتبن إلى أخيك أمير المؤمنين

فى شأنها .

فسأل مصعب عمرة عن أهلها فقالت له : إنهم بالحيرة .

فأمر بأن تحمل إلى أهلها هناك ريثما يأتيه جواب أخيه عبد الله فى أمرها فينفذه .

ولكن الشرطة الذين انتدبهم لمرافقتها قتلوها فى الطريق بين الكوفة والحيرة . فلما بلغ مصعبا ذلك ثار وغضب وتوعد القتله بالعقاب ، لولا أن جاء جواب من عبد الله بن الزبير يأمره بقتلها ، إذا أصرت على رفضها أن تتبرأ من زوجها الكافر . فما كان من مصعب إلا أن سكت عنهم .

بيد أن الأثر الذى تركته هذه الحادثة فى مصعب كان عميقا جدا ، فلم يستطع أن يطرد من ذهنه خيال عمرة وهى مضرجة بدمائها فى الأرض القفر ، ولا من سمعه صدى أبيات ابن أبى ربيعة التى سارت بها الركبان وانتشرت فى كل مكان :

إن من أكبر الكبائر عندى ... قتل حسناء حرة عطبول

قتلت باطلا على غير ذنب ... إن لله درها من قتيل

كتب القتل والقتال علينا ... وعلى الغانيات جر الذيول

* * *

وضاق مصعب بمقامه فى الكوفة ، وأراد أن يرتحل إلى أخيه لعله يجد فى الرحلة فرجا من الكرب الذى هو فيه . ولكنه ينتظر قدوم إبراهيم بن الأشتر الذى كتب إليه بأنه قادم ، ولم تطوع له نفسه مغادرة الكوفة قبل أن يقدم إبراهيم ، فيعهد إليه بمراقبة شئون الحكم فى أيام غيبته بالحجاز ، إذ كان لا يثق بأحد ثقته بإبراهيم . وكان مصعب معجبا بإبراهيم بن الأشتر

منذ كان ابن الأشتر خصما له يقاتله مع عدوه المختار بن أبى عبيد ، كما كان ابن الأشتر معجبا بمصعب كذلك ، يكبر أحدهما الآخر لشهامته وفروسيته .

وكان ابن الأشتر متحمسا للمختار ، لما أظهره من التشيع لآل البيت والمطالبة بدمائهم وإعادة الحقوق إليهم ، ودعوته فى ذلك إلى محمد بن الحنفية . وظل كذلك إلى أن تبين له كذب المختار فيما ادعى من كتاب محمد بن الحنفية إليه ، ذلك الكتاب الذى زوره المختار عليه ، فتبرأ منه حينئذ وتخلى عنه .

وكانت الحرب سجالا بين المختار ومصعب ، فما راع مصعبا ذات يوم إلا ابن الأشتر يقبل عليه وحده والسيف مشهور فى يده ، فحاول رجال مصعب أن يمنعوه فقال لهم مصعب : دعوه .

فلما دنا منه أغمد سيفه فتعانقا عناقا حارا جعل القوم يتعجبون له أشد العجب ، ثم اختليا فى مجلس وتطارحا الحديث كأنهما صديقان حميمان .

قال ابن الأشتر :

ـــ والله يا مصعب لو أردت قتلك لحاولت ذلك ولربما نجحت فيه ، ولكن نفسى لم تطاوعنى على أن أقتل رجلا مثلك جمع الله له جمال الخلق وكمال الخلق . والله يا مصعب إنى لأحبك وأعجب بك وأرى أن الدنيا سيقبح وجه الحياة فيها إذا خلت من وجهك .

وأجابه مصعب قائلا : وأنا والله أحبك وأقدرك يا إبراهيم ، ولقد حاولت جهدى أن ألقاك لأقتلك فأكون قتلت أشجع فارس فى العرب ،

ولكنى لم أسلط عليك . والله ما يعدل رغبتى فى قتلك إلا سرورى بنجاتك ، لعلك تنقلب خليلا لى فتقاتل معى هذا المنافق عدو الله المختار بن أبى عبيد .

قال ابن الأشتر :

ـــ إن ذلك ليسرنى يا مصعب ، ولقد تبينت كذب المختار ونفاقه فتبرأت إلى الله منه ، ولكن مروءتى تمنعنى أن أقاتله معك اليوم وقد قاتلتك معه أمس ، فأمهلنى يا مصعب حتى تفرغ أنت منه وحينئذ فادعنى فستجدنى ورجالى طوع أمرك .

ـــ أين تمضى يا إبراهيم ؟ .

ـــ سأمضى أنا ورجالى إلى جهة الموصل ، حيث كنت عاملا للمختار هناك .

فقبل مصعب منه ذلك وركب معه يودعه بنفسه ، حتى أوصله إلى مأمنه .

فلما اعتزم اليوم مصعب أن يسير إلى الحجاز ، ألح فى طلب ابن الأشتر فكتب إليه يستقدمه ويستنجزه وعده ، فلبى ابن الأشتر دعوته وقدم إليه مع رجاله بالكوفة ، فسر بهم مصعب وأكرمهم وجعل ابن الاشتر على الوفادة ، واعتمد عليه فى مراقبة شئون الحكم أثناء غيبته بالحجاز .

وأنكر أصحاب مصعب عليه ذلك ونصحوه ألا يطمئن إلى إبراهيم ابن الأشتر ، فقال لهم : ويحكم إنكم لا تستطيعون أن تعرفوه مثلى . والله إنى لأثق بإبراهيم أكثر من الناس جميعا . إن عبد الملك بن مروان قد كتب

إليه بالموصل يستقدمه إليه ليوليه الولايات ، فرفض دعوة عبد الملك وآثرنى عليه .

* * *

وغادر مصعب الكوفة فى وفد من وجوه أهل العراق حتى قدم على أخيه عبد الله بمكة . وكان أول ما فاتحه به عبد الله أن لامه فى تقريبه لإبراهيم بن الأشتر ، وذكره بأن أباه مالكا الأشتر هو الذى جرحه فى وقعة الجمل ، حيث برك الأشتر على عبد الله فجعل يصيح صيحته المشهورة :

اقتلونى ومالكا واقتلوا مالكا معى

فأجابه مصعب بأن ذلك أمر قد مضى ، ولا شأن لإبراهيم بما كان من أبيه .

فلما أكثر عبد الله عليه فى ذلك غضب مصعب وقال : إنى اخترت إبراهيم بن الأشتر على علم منى ، فإما أن تقرنى على عملى وإما اعتزلت فول مكانى من شئت .

فعجب عبد الله من شدة مصعب فى هذا الأمر ، وأعرض عنه ولم يعاود القول فيه . وكان مصعب يأمل من أخيه أن يكرم وفادة أصحابه الذين قدم بهم من العراق فقد كانوا من خيرتهم ، وسيكونون لسان صدق له حين يرجعون إلى بلادهم . ولكن عبد الله بن الزبير خيب أمله وآمالهم فيه ، فأحرج مصعبا أمامهم حتى قال لهم مصعب : لا يغضبنكم هذا من أخى فإنه رجل متزمت متشدد ، لا يرى من حقه أن يرزأ بيت مال المسلمين من أجلكم ، ولكنى سأنوب عنه فى تكرمتكم وعطاياكم حين

نعود إلى العراق .

ولم يكتف عبد الله بحرمانهم من العطاء ، حتى قال لهم لما اجتمعوا عنده : جئتنى يا مصعب بعبيد أهل العراق لأعطيهم من مال الله .. وددت والله أن لى بكل عشرة منهم رجلا من أهل الشام ، يصرف الدينار بالدرهم !

فأجابه أحدهم وكان قاضى الجماعة فقال :

يا أمير المؤمنين إن لنا ولكم مثلا قد مضى ، وهو ما قال الأعشى :

علقتها عرضا وعلقت رجلا غيرى وعلق أخرى ذلك الرجل

علقناك يا أمير المؤمنين وعلقت أهل الشام ، وعلق أهل الشام عبد الملك بن مروان ، فماذا عسينا أن نصنع ؟ .

وضاق مصعب بأخيه صدرا ، فاختلى به وجعل يلومه ويعنفه على ما صنع بوفد العراق ، وقال له : إنك لن توفق أبدا . أجيئك بوجوه أهل العراق ونخبتهم لتكرمهم فيكونوا قوة لك ، فإذا أنت تهينهم وتمنعهم من عطائك . ما هكذا يا أخى تكون السياسة ، وما هكذا تحفظ الخلافة .

فقال له عبد الله :

— ويلك يا ابن أخت بنى كلب ، أتريد أن تفتننى عن دينى لأفرق مال الله بددا فى هؤلاء وما فيهم إلا غنى عنه ، وليس بينهم فقير يستحق العطاء ولا مسكين . بئست الخلافة إذن إن كنت لا أحفظها إلا بشراء الذمم ، كما يفعل آل مروان !

— إذن فلن تبقى لك أبدا .

— إذن فلا كانت !.

— علام إذن تفرق كلمة المسلمين وتجعل لهم خليفتين .. خليفة فى مكة وخليفة فى الشام ! .

— ويلك ! إنما أردت أن أحملهم على المحجة البيضاء ، وأنقذهم من طمع آل مروان وتكاثرهم وفسادهم .

— فإنك لن تصل إلى ذلك بكزازة اليد والعطاء المصرد .

— هلم يا مصعب ، لقد أردت أن أحاسبك أنت فإذا أنت تحاسبنى ! .

— فى أى شىء تريد أن تحاسبنى ؟ ألم أقض لك على المختار بن أبى عبيد ؟ ألم أوطد لك حكم العراقين ؟ ألم أجمع حولك الأنصار ؟ .

— ولكن ماذا فعلت بمال الله الذى جعله فى يدك ؟ ألم تمهر كلا من سكينة بنت الحسين وعائشة بنت طلحة خمسمائة ألف درهم ؟ ألم تعط لعلى بن الحسين الذى حمل إليك أخته من المدينة إلى البصرة ، أربعين ألف دينار ؟ .

— هذا خويصة أمرى فلا شأن لك به ، وما أمهرتهما من مال الله كما تزعم بل من صلب مالى . أوَلا تذكر حين اجتمعنا عند الحجر الأسود من قديم ، فتمنى كل واحد منا أمنية ، وقد تمنيت أنت الخلافة فأعطيتها ، وتمنيت أنا أن أملك العراقين وأن أجمع بين سكينة وعائشة فأعطيت ما تمنيت ، فماذا يضيرك من ذلك ؟ .

وأدرك مصعبا وقت الحج ، فلما وقف بعرفات لقيه رجل وسيم الهيئة فنظر إليه مليا ، فسألة مصعب :

ــ ما خطبك ؟ .

ــ لا شيء ، غير أني نظرت إليك فقلت فى نفسى : هذا فتى أكره أن تراه بثينة !

ــ أنت جميل بن معمر ؟ .

ــ نعم . وأنت مصعب بن الزبير . وددت لو رزقنى الله مثل وجهك هذا بما طلعت عليه الشمس .

فتبسم مصعب وقال : ماذا كنت تصنع به يا جميل بن معمر ؟ .

ــ أفتن به قلب بثينة وأشغفه حبا .

فضحك مصعب حتى بدت نواجذه ثم قال :

ــ إنك تحسدنى على وجهى ، وأنا أحسدك على شعرك .

ــ ماذا تصنع بالشعر وعندك ما يغنيك عنه ؟ .

ــ أستعطف به قلوب الهواجر ! .

ــ وهل لك من هواجر يا مصعب ؟ وقد جمع الله لك بين أجمل نساء العرب ؟ .

ــ لو تعلم يا ابن عمى ما ألقى من مغاضباتهن ، ما قلت الذى قلت .

ــ إنما يصنعن ذلك دلالا ، لا قلى ولا ملالا ، ولن يغنى عنك الشعر فى ذلك شيئا ، وشتان يا مصعب بين هجر الدلال وهجر القلى والملال .

ــ أوَ تشكو بعد من بثينتك ؟ ألم يرق قلبها لك بعد ؟ .

ــ لو قد رق لى قلبها ، ما تمنيت لى وجها كوجهك ؟ .

ــ هل لك فى أن ألقاها فأكون شفيعا لك عندها .

— كلا كلا يا رجل . ضل من جعلك شفيعه إلى امرأة .

وتولى جميل عنه مسرعا ومصعب يضحك .

وكان مصعب ذات يوم بالبيت ، فلما انتهى إلى الحجر الأسود هاجته الذكرى ، فوقف هنيهة يسترجع ما كان فى أول شبابه ، حين اجتمع عند الحجر الأسود مع جماعة فيهم أخواه عروة بن الزبير وعبد الله بن الزبير ، وفيهم عبد الله بن عمر وعبد الملك بن مروان فقالوا : ليقم كل واحد منكم وليسأل الله حاجة ، وكيف أن الله قد أعطى كل واحد منهم ما تمناه .

واشتاق أن يرى أولئك النفر ، فذهب إلى عبد الله بن عمر ليذاكره بذلك . فلما لقيه أعرض عنه ابن عمر وجعل يلومه على ما فعل بأصحاب المختار كيف قتل فى يوم واحد ثلاثة آلاف رجل ، فأخذ مصعب يعتذر ويقول : إنهم فسقوا إذ اعتقدوا أن صاحبهم يوحى إليه .

قال عبد الله : هلا استتبتهم أولا ، فمن لم يتب منهم قتلته ؟ .

— ما كانوا ليتوبوا أبدا .

— ألم يعرضوا عليك أن يقاتلوا معك ؟ .. أفلا يدل ذلك على أنهم ترجى توبتهم ؟

— لقد أردت أن أقبلهم ، لولا أن أصحابى من وجوه أهل العراق عارضوا فى ذلك وقالوا اخترنا أو اخترهم .

— ما إخالهم إلا نظروا فى ذلك لصالح عبد الملك بن مروان ، خشية أن تقاتله بهؤلاء .

وذعر مصعب لهذه الكلمة التى أرسلها عبد الله بن عمر إرسالا دون



تدبر ولا روية ، ولكنها أثارت فى قلب مصعب شجنا كامنا . فقد كان يحس فى أعماق نفسه أن لإشفاقه من قتال عبد الملك ، ورغبته الخفية فى توقيه جهد ما يستطيع أثرا فى موقفه من أصحاب المختار ، إذ ألحوا عليه إلحاحا شديدا فى أن يبقى عليهم ليقاتلوا معه عبد الملك بن مروان ، فكأنه أراد التخلص منهم حتى لا يحملوه حملا على ما لا يريد .

ولكنه لم يشأ أن يعترف بهذه الحقيقة التى يكتمها عن الناس جميعا ، و لم يكاشف بها غير صديقه الأحنف بن قيس . ترى ماذا يكون موقف أخيه منه لو علم ؟ .

وكان قد سمع من الأحنف بن قيس مثل هذا الاتهام الذى سمعه من عبد الله بن عمر ، إذ قال له الأحنف يوم مذبحة أصحاب المختار : ألا يجوز يا مصعب أن لعبد الملك بن مروان يدا فى تحريض أصحابك هؤلاء على المطالبة بقتل أصحاب المختار ، لما علم من تحمسهم لقتاله ؟ .

ولكن لم يكن لمقالة الأحنف إذ ذاك فى نفسه مثل الأثر الذى تركته مقالة عبد الله بن عمر اليوم ، فقد خشى أن يشيع هذا الظن فى الناس فيبلغ أخاه عبد الله بن الزبير .

وصاح مصعب مجيبا عبد الله بن عمر :

ـــ ماذا تقول يا ابن عمر ؟ أتشك فى نية أصحابى وإخلاصهم ؟ أو تتهمهم بالعمل لصالح عبد الملك بن مروان ؟ .

ـــ أنا لا أتهم أحدا ، ولكن إن كان لأحد صالح فى قتل هؤلاء فهو عبد الملك بن مروان .

— إنما ألح أصحابى فى قتل هؤلاء ، لأن هؤلاء قتلوا وجرحوا كثيراً من أولادهم وعشائرهم .

— إنى لا ألومهم بل ألومك أنت . ويحك خبرنى يا مصعب لو أن رجلا أتى ماشية الزبير فذبح منها ثلاثة آلاف رأس فى غداة واحدة ، ألست تعده مسرفا ؟ .

— بلى .

— أفتراه إسرافا فى البهائم ولا تراه إسرافا فيمن ترجو توبتهم ؟ .

فتأثر مصعب مما سمع ، ووقف مكتئبا لا يحير جوابا .

فانصرف عنه عبد الله بن عمر وهو يقول :

— يا ابن أخى أصب من الماء البارد ما استطعت فى دنياك .

فكان لهذه الكلمة الأخيرة أثر عميق فى نفس مصعب لا تمحوه الأيام ، فقد ظل يذكرها طول حياته ، وكلما فكر فى معناها اقشعر بدنه وتقطع قلبه ندما وخشية .

* * *

لم يخف مصعب على أخيه عبد الله إستياءه منه ، لما أساء استقبال وفد العراق ، ولما أغلظ له الحديث فى أمر سكينة وعائشة ، فلم يشأ أن يكثر التردد عليه أثناء إقامته بمكة فكان لا يزوره إلا نادرا .

ولما عزم على الرجوع إلى العراق خطر له أن يرحل من مكة دون أن يسلم على أخيه أو يودعه ، حتى يكون ذلك بمثابة الاحتجاج عليه . ولكنه عاد فرأى أن فى ذلك افتئاتا على حق أخيه الخليفة ، وخشى أن يتخذ أحد

بطانته من ذلك سببا لإيغار صدره عليه ، وتصويره بصورة من يريد الخروج عن طاعته .

وحين حضر لتوديعه جلس معه طويلا ، فذاكره عبد الله فى أمر عبد الملك بن مروان ووجوب معاجلته بالحرب ، فوعده مصعب خيرا ، وقال له إنى راجع إلى العراق لأدبر فيها الأمور وأهيئ فيها الأسباب ، حتى إذا اطمأننت إلى استقامة الأحوال بها مضيت بجيشى إليه ، وكتبت إليك لتعززنى بجيش من عندك يلقانى فى الطريق .

قال عبد الله : أخشى يا مصعب أن تنسيك الدعة فى العراق ما تعدنى به اليوم .

فأجابه مصعب فى شيء من الحدة :

ـ يا أخى لم لا تحسن رأيك فى ؟ إن الدعة لا تشغلنى عن مهام الأمور .

ـ هذا قول تقوله يا مصعب ، وأخشى أن يكذبه ما يبلغنى من عملك .

وكان مصعب يخشى أن يكون قد بلغ عبد الله شيء عن ضعف نيته فى قتال عبد الملك ، لما بينهما من الصداقة القديمة ، ولكنه لما ذكر الدعة أدرك يقينا أن أخاه لا يدرى عن هذه الحقيقة شيئا ، فاطمأنت نفسه وانشرح صدره ، وإن أظهر الحدة فى رده عليه حينما اتهمه بحب الدعة .

ولم يكد مصعب يصل إلى الكوفة ويستقر بها أياما ، حتى انتهى إليه أن أخاه قد عزله من ولاية البصرة وولى مكانه عليها ابنه حمزة ، فغضب مصعب غضبا شديدا ، ولم يقلل من غضبه أن عبد الله كتب إليه فى الاعتذار عن ذلك بإنه أراد أن يفرغه هو للاستعداد لقتال عبد الملك حتى

لا يشغله عنه شيء ، وأن من الخير أن يكون على البصرة رجل من آل الزبير ، أثناء سير مصعب إلى الشام لمنازلة عدوه .

واجتمع بالأحنف بن قيس وإبراهيم بن الأشتر وغيرهما من كبار أصحابه ، فتذاكر معهم سوء سياسة أخيه وبخله واستبداده بالرأى ، واستشارهم فيما ينبغى عليه أن يفعل .

فأشار عليه أكثرهم بألا يخضع لأمر أخيه ولا يعترف لحمزة بولاية البصرة ، وأن يكتب إلى نائبه بها أن يستمر فى حكمها بالنيابة عنه ، ولا يمكن حمزة من شيء حتى يضيق صدره فيلحق بأبيه راجعا إلى مكة .

ولكن الأحنف بن قيس خالفهم فى هذا الرأى بشدة ، وقال لمصعب :

ــ إنك إن فعلت ذلك أعلنت للناس أنك على خلاف مع أخيك أمير المؤمنين ، ولن يستقيم لك ولا له أمر بعد ذلك .

ــ فماذا أصنع يا أبا بحر ؟ .

فأطرق الأحنف مليا ثم قال له :

ــ ماذا ترى فى ابن أخيك حمزة هذا ؟

ــ شاب أخرق أحمق لا يحسن أن يسوس بيته .

ــ فاتركه إذن بحكم البصرة برهة حتى يظهر فساد سياسته وعجزه عن القيام بأعباء الولاية ، فسيضطره أخوك حينئذ إلى عزله ويعيد الولاية إليك .

ــ وإذا لم يفعل ؟

ــ كلا يا مصعب ، لا تمض فى سوء الظن بأخيك عبد الله إلى أبعد مما

ينبغي لك ، فمهما يسغ لنا أن نقول فيه فلا ينبغي أن ننسى أنه شديد فى الحق على نفسه وعلى أقرب الناس إليه .

فقال مصعب : صدقت يا أبا بحر ، إن عبد الله لكما وصفت وهذا ما حيرنى فى أمره ، كيف يحاسبنى على النقير والقطمير ثم يولى ابنه هذا الأخرق على البصرة ؟

ولما انصرف أصحابه من عنده و لم يبق إلا الأحنف ، قال له :

ـــ ويحك يا مصعب ما كان ينبغي أن تعلن هذا على ملأ من الناس ، فإنك لا تأمن أن يكون فيهم من يكتب إلى أخيك عبد الله بما يسمع منك .

فقال مصعب : ليبلغه ذلك فإنى لا أبالى .

ـــ كلا يا مصعب ، ما يكون لك أن تصعب الأمور على نفسك وإن الكياسة ملاك السياسة .

قال له مصعب : أعلى أن أنتظر حتى يثبت عجز حمزة وفساد سياسته ، لغير شيء إلا أن أوافق أخى عبد الله على استبداده ؟

قال الأحنف : ويحك أى شيء يعجلك ؟ إنك لست حريصا على قتال عبد الملك بن مروان ، وهذا ضعف فيك . فماذا يضيرك أن تجد فى عزلك عن البصرة وتوليتها لحمزة ما تعتذر به إلى أخيك عن التعجيل بالمسير إلى الشام ، خشية أن تضطرب أمور العراق فى غيبتك ؟ .

فاستراح مصعب لهذه الكلمات إذ أصابت هوى فى نفسه ، فقد كان لا يكره شيئا فى الحياة ما يكره أن يضطر إلى محاربة ذلك الصديق الحميم .

* * *

طرأ على مصعب تغير شديد فى مزاجه وسلوكه ونظرته إلى الحياة منذ عودته من الحجاز . فلم يعد ذلك المرح البسام الذى يأخذ الحياة أخذا لينا ، ويستقبلها بصدر منشرح ، ويستمتع بها استمتاع من لا يفكر إلا فى يومه ولا يبالى بغده .

وأخذت الهموم تساور قلبه فتكدر عليه يومه وتؤرق ليله أحيانا ، وتضطره للتفكير فى المستقبل فيجده كالحا لا يبشر وجهه بخير ولا يفتر ثغره عن أمل . أين تلك الثقة التى كانت تفيض بها نفسه ؟ وأين تلك الآمال التى كان يجيش بها صدره ؟ لقد قضى على كل ذلك ما لقيه به أخوه عبد الله حين قدم عليه فى عاصمة ملكه .

لقد كان يعلم أن أخاه مقبوض اليد ، ولكنه لم يخطر بباله قط وهو قادم عليه بعد ذلك النصر الكبير الذى أحرزه على عدوه اللدود المختار بن أبى عبيد ، أن تبلغ بأخيه كزازة اليد بحيث يمنع عطاءه عن تلك النخبة المختارة من وفد العراق ، الذين قدم بهم عليه مزهوا بهم مؤملا أن يلقوا من أخيه أمير المؤمنين ما يكافىء بعض ما قدموا من نصرة له ، وبعض ما أظهروا من إخلاص فى سبيله ، حتى يبيض وجهه هو أمامهم ، فيستطيع فى المستقبل أن يثق باستمرار ولائهم له وعدم انصراف قلوبهم عنه إلى أعدائه .

لقد رجع من الحجاز وهو يشعر بالخزى والهوان مما فعله أخوه عبد الله بوجوه أهل العراق ، إذ لم يكتف بمنع العطاء عنهم بل أهانهم جهارا وندد بهم على تلك الصورة المندية حيث وازن بينهم وبين أهل الشام فود لو أن له بكل عشرة منهم رجلا واحدا من أهل الشام يصرف الدينار بالدرهم .

أجل إنه قد أجزل لهم العطاء عقب عودته من العراق ليعوضهم عما فاتهم من عطاء أخيه ، وبالغ التحبب إليهم والتقرب إلى قلوبهم ، ولعله قد نجح فى استبقاء مودتهم له . ولكن كيف يزيل عنهم أثر الإهانة التى مستهم من أخيه ، وكيف يستعيد له بعدها ولاءهم وإخلاصهم ؟ وإن فرقا كبيرا بين أن يخلصوا له هو ، وبين أن يخلصوا للقضية العامة التى يعمل لها ويجاهد فى سبيلها أخوه أمير المؤمنين .

إنهم لن يوازنوا بينه وبين عبد الملك بن مروان فما هو إلا أمير تابع لأخيه عبد الله ، ولكنهم سيوازنون حتما بين عبد الله بن الزبير الخليفة بالحجاز وبين عبد الملك بن مروان الخليفة بالشام ، فمن ذا يستطيع أن يلومهم إذا مالت نفوسهم إلى عبد الملك ؟ .

وها هو ذا أخوه عبد الله يعزله عن ولاية البصرة ، كأنما يريد أن يؤكد لهؤلاء العراقيين أن ليس لأخيه مصعب شىء من الأمر ، وكأنما يقول لهم بلسان حاله : ويلكم لا تغتروا بصاحبكم مصعب ، فإنى أنا الحاكم من ورائه ومرجع الأمر كله إلىّ .

إنه هو الكريم بالطبع والنحيزة لأشد الناس ضيقا بما جبل عليه أخوه عبد الله من البخل ، وأعمقهم إحساسا بالألم والمرارة من جرائه ، وبالحياء منه والخجل كذلك .

وإنه ليعتذر عنه لبعض من يجلسون إليه من غير خاصة أصحابه ، فيزعم لهم أن مرجع ذلك من أخيه عبد الله إلى فرط تقواه وشدة محاسبته لنفسه ، وحرصه على ما استحفظه الله عليه من مال المسلمين أن يصرف فى

غير ما أمر الله به أن يصرف من وجوه الخير والبر ، ولكنه لا يؤمن بذلك فى قرارة نفسه ، ولا يعزوه إلا إلى رذيلة البخل وهى أبغض الخلال جميعا إليه .

وتتسلسل الهموم آخذا بعضها برقاب بعض ، فيذكر أولئك الثلاثة الآلاف من أصحاب المختار الذين تركهم يذبحون فى يوم واحد ، بعد ما توسلوا إليه أن يبقى عليهم ليقاتلوا معه آل مروان أعداءهم وأعداءه ، وكان فى وسعه أن يحول دون ذلك لو وقف موقف الحزم من أشياعه الكوفيين .

ويتذكر تلك الكلمة التى حصبه بها الرجل الصالح عبد الله بن عمر حين لقيه بمكة ، فلم يزل دويها فى سمعه وقلبه : يا ابن أخى أصب من الماء البارد ما استطعت فى دنياك .

ويتذكر امرأة المختار ابنة النعمان بن بشير صاحب رسول الله ﷺ ، التى قتلها أصحابه غدرا وهى فى طريقها بين الكوفة والحيرة ، فعيره بذلك الشاعر عمر بن أبى ربيعة فى أبياته التى جرت على أفواه الناس فى كل مكان .

لقد احتمل قبلا كل ما احتمل من ذلك من أجل أخيه عبد الله أمير المؤمنين ، وفى سبيل القضية العادلة التى ينافح عنها لخير المسلمين ، والتى كان يطمع أن تنتصر فى المستقبل القريب .

أما اليوم وقد أوشك أن ييأس من مستقبلها ، فعلام احتمل كل ما احتمل ؟ وعلام استباح فى سبيلها ما لم يقره ضميره ولم تسوغه له مروءته ؟ .

ثم إن من أشد ما يؤلم نفسه أن العدو المطالب هو بقتاله ، لم يكن غير صديقه القديم الحميم عبد الملك بن مروان .

لقد استطاع زمنا أن يتقي الاشتباك معه فى حرب بما كان يشغله هو من قتال المختار بن أبى عبيد ، وبما كان يشغل عبد الملك من قتال الروم والخوارج .

فأى عذر بقى له اليوم بعد ما قضى على المختار بن أبى عبيد وفرغ منه ؟ وإن أخاه عبد الله ليحثه على المسير إلى الشام لمنازلة عبد الملك ، وإنه ليزعم له أنه ما عزله عن إمارة البصرة وجعلها لابنه حمزة ، إلا ليتفرغ مصعب لهذه المهمة الكبرى .

وإنه ليعلم أن هذا عذر أقبح من الذنب . ولكن لماذا لا يتخذه سببا لتسويف المسير إلى الشام كما نبهه إلى ذلك الأحنف بن قيس ؟ فى وسعه الآن أن يكتب إلى أخيه عبد الله بأنه لا يستطيع أن يغادر العراق ويتوجه صوب الشام لمنازلة عبد الملك ، إلا بعد أن يثبت حمزة أنه قادر على ضبط الأحوال وتصريف الأمور فى ولايته ، ويومئذ يطمئن هو فيسير .

وإلى أن يتم ذلك قد تجد أمور وأمور ، ليس من المستطاع التكهن بها اليوم .

* * *

ولم يطل بمصعب الانتظار ، فإن حمزة ابن أخيه عبد الله لم يلبث أن ظهر عجزه عن حكم البصرة وسوء سياسته فى أهلها ، فضاقوا به وتذمروا من وجوده بينهم ، وأخذوا يستخفون بأمره ، ويستهينون بشأنه ،

ويتندرون عليه . فيغضب هو منهم ويشتط فى معاملتهم ، فلا يزيدهم ذلك إلا نفورا منه وإغراء به .

و لم يسع الأحنف بن قيس عندئذ إلا أن يكتب إلى عبد الله بن الزبير يطالبه بعزل حمزة عن ولاية البصرة ، وإعادتها إلى مصعب كما كانت ، ويقول له : إن عبد الملك قد فرغ من منافسة عمرو بن سعيد الأشدق إذ قتله غدرا ، وإنه خليق الآن أن يستعد لغزو العراق .

واستجاب عبد الله بن الزبير لكتاب الأحنف فعزل ابنه حمزة ، وأعاد ولاية البصرة إلى مصعب ، وأوصاه بالتوجه لمناجزة عبد الملك فكان ذلك يوما مشهودا ، إذ رجع مصعب إلى البصرة ليصلح بها ما أفسده ابن أخيه ، وليرتب فيها الأمور استعدادا لما ليس منه بد من التوجه إلى الشام لتنفيذ ما أمره به أخوه عبد الله .

وأخذ معه نساءه الأربع فأعادهن إلى دورهن بالبصرة ، وكأنما أحس أنه يقيم بها هذه المرة مقام مودع ، وأنه لن يلبث أن يغادرها لغير رجعة ، فأطلق لنفسه العنان فى الاستمتاع بأقصى ما يمكنه من مباهج الحياة فى هذه المدينة الوادعة ، ذات الزروع وذات النخيل وذات الشط الذى تتمايل فيه السفن والقوارب غادية رائحة .

آه ما أجمل الحياة فى ظل السلام ، حيث لا حرب ولا خصام .

اللهم إلا تلك الخصومات اللذيذة العذبة التى تنشب بينه وبين نسائه الجميلات ، اللائى يتنافسن عليه أيهن تكون لها الحظوة الأولى عنده والمقام الأول فى قلبه .

وقد أتيح لهن فى هذه المدينة من فراغه ودعته ، ما لم يتح لهن فى الكوفة ، فأمعنّ فى التحبب إليه والتدلل عليه فى أساليب مختلفة ، لكل واحدة منهن أسلوبها الذى تجيده .

ولقد كان يشقى بهن ، وبما يصدر عنهن من منافسات ومكايدات تدور حوله كأنما هو كرة تتلاعب بها الصوالج ، ولكنه كان يجد لذلك لذة لا تعدلها لذة فى الحياة .

كان يلذ له الهجر كما يلذ له الوصل ، ويعجبه العتب الجميل كما تعجبه الشكوى الرقيقة ، وتطيب له المغاضبة كما تطيب له المراضاة ، وإنها لأمور محببة إليه إذ يجد فيها مجالا لقلبه أن يتوثب ، ويتعذب ويشتكى ويستعتب ، ويتقلب بين حلاوة الوصل ومرارة الهجران .

ولقد اجتمع له من أجمل نساء العرب فى عصره ، ما كانت تكفى واحدة منهن ليقصر عليها بعلها قلبه ، ولكن قلب مصعب الكبير يتسع لهن جميعا ، وتبقى فيه بعد زوايا خالية تود لو أن الشرع أباح له أن يشغلها بنسوة أخر .

وكان أشد ما يلقى من ذلك ما يلقى من عائشة بنت طلحة ، فقد كانت أشرسهن عليه ، وأكثرهن نشوزا ودلا وتعذيبا .

إنه لا يعرف من أين يأتى رضاها ولا من أين يأتى سخطها ، فقد يعمل شيئا يريد به رضاها فإذا هى تغضب منه ، وقد يأتى أمرا يحاول به أن يغضبها فإذا هى ترضى عنه وتشكره عليه .

ولن ينسى أبدا كيف عرضت عليه ذات يوم ثمانى لؤلؤات ، لم ير الناس

أكبر منها حجما قط ولا أجمل بريقا ، فاشتراها بعشرين ألف دينار . فانطلق بها فرحا إلى دار عائشة ليقدمها هدية إليها ، وكان يعرف غرامها باللؤلؤ الأصيل ، وحرصها على الاستكثار منه وتدقيقها فى اختياره ، فلما دخل عليها عند الضحى وجدها نائمة ، فلم يستطع من فرط سروره بما يحمل لها أن ينتظر حتى تستيقظ من تلقاء نفسها ، فأيقظها ونثر اللؤلؤ فى حجرها وهو يقول :

— جئتك يا عائش بلؤلؤ لا يصلح لغير جيدك ، وليس عندك مثله .

فما راعه إلا أن نظرت إلى اللؤلؤ بغير اهتمام ، ثم قالت وهى تتثاءب :

— ويلك يا مصعب ! أمن أجل هذا توقظنى من نومتى ؟ والله إن نومتى كانت أحب إلى من هذا اللؤلؤ !

وعادت إلى نومها ، وهى تومئ له أن اخرج ودعنى أنم وحدى فى سلام .

وكان ربما يدعوها للتنزه معه فى بعض ضواحى المدينة ، فتقول له :

— ويحك ألا تغار على من عيون الناس ؟

فيقول لها : أى شىء يدعونى للغيرة منهم عليك ؟ أنا أكبر من ذلك يا عائشة ، وأنت أكرم من ذلك ؟ .

فتثور فى وجهه قائلة : إنك لا تحبنى ، فاذهب عنى ولا تعد إلىّ .

فيحاول أن يسترضيها فلا تقبل له كلاما وتصفق الباب فى وجهه ، وتبقى أياما مغاضبة له لا تأذن له ولا تكلمه .

وكانت من جانب آخر قلما تحتجب ، إذ كانت تجلس وتأذن كما يأذن

الرجل ، فإذا عاتبها مصعب فى ذلك قالت له :

ــ إن الله تبارك وتعالى وسمنى بميسم جمال ، أحببت أن يراه الناس ويعرفوا فضلى عليهم فما كنت لأستره ، ووالله ما فىّ وصمة يقدر أن يذكرنى بها أحد .

فإذا راجعها مصعب فى ذلك ، اندفعت تقول له :

ــ ويلك إن الغيرة من الضعف ، وهى لا تجدر بمثلك .

ــ إنما أغار عليك حبا يا عائشة ، ولا أغار عليك ضعفا .

ــ فادع غدا أحد أصحابك ليجلس إليك ، ويرانى بين يديك .

ــ أو بعد غد .

ــ كلا بل غدا وإلا فلا .

ــ حبا وكرامة .

قال ذلك وهو يعلم أن غد ذلك اليوم سيكون فى نوبة سكينة بنت الحسين ، ولكنه لم يشأ أن يتقهقر أمام تحديها السافر فوعدها ، ولا بد أن يفى بالوعد وليكن ما يكون .

ولم يدرك أنها قصدت ذلك عن عمد ، لتفسد ما بينه وبين غريمتها سكينة إلا بعد ذلك بأيام ، حين صارحته هى بذلك وهى تضحك من غفلته وسذاجته .

فلما كان الغد حضر مصعب إلى دارها ومعه أبو عامر الشعبى ، فلما ظعن فى الدار التفت إليه وقال له ادخل فدخل معه ، ومضى نحو حجرته فتبعه الشعبى ، فإذا هو بحجلة جميلة مكسوة بألوان الحرير فوقف ينظر إليها

مبهوتا متعجبا من حسنها وبهائها ، ودخل مصعب الحجلة واختفى فيها فهم الشعبى أن ينصرف ، ولكنه تذكر أن مصعبا لم يأمره بالانصراف ، وحدثته نفسه بالجلوس ولكنه خشى أن يغضبه ذلك منه ، فوقف منتظرا فإذا جارية قد خرجت فقالت :

— يا شعبى إن الأمير يأمرك أن تجلس .

فجلس الشعبى على وسادة وثيرة غاص فيها حتى أشفق أن يتلفها أو يفسدها ، وظل كذلك برهة لا يدرى ماذا يفعل ولا ماذا يريد مصعب أن يفعل به .

وإنه لكذلك إذ رفع سجف الحجلة ، فإذا هو بمصعب بن الزبير يحييه ويبتسم له فاطمأن قلبه قليلا ، ثم رفع السجف الآخر من الحجلة ، فإذا هو بعائشة بنت طلحة قد بدت فى زينتها كأنها الطاووس فأخذت تبتسم له وتحييه ، فلا يحير جوابا ..

— ويحك يا شعبى ألا ترد تحيتى بأحسن منها ؟

وتلعثم الشعبى وتلجلج وهو يقول :

— معذرة يا سيدتى ..

— ماذا دهاك ؟ لطالما سمعت عنك أنك فصيح المنطق ، فأين ذهبت فصاحتك ؟

وقهقه مصعب ضاحكا وهو يقول :

— دعيه فوالله لو رأيتك أول مرة مثله لأصابنى الذى أصابه .

ثم وجه حديثه إلى الشعبى فقال :



ـــ هل تعرف هذه يا شعبى ؟

ـــ نعم أصلح الله الأمير .

ـــ ومن هى ؟

ـــ سيدة نساء المسلمين ، عائشة بنت طلحة .

ـــ كلا يا شعبى .

ـــ فمن تكون إذن أيها الأمير ؟

ـــ هذه ليلى التى يقول فيها الشاعر :

ومازلت من ليلى لدن طر شاربى   إلى اليوم أخفى حبها واداجــن

فحار الشعبى و لم يدر ماذا يقول .

ورنت ضحكة عائشة وهى تقول :

ـــ لا تصدق هذا الرجل يا شعبى ، فإنى أنا حقا عائشة بنت طلحة .

وسكت الشعبى و لم يدر بماذا يجيب .

ـــ انظر إلى يا شعبى . ألا يسرك أن تنظر إلى ؟

ـــ بلى يا سيدة نساء المسلمين .

ـــ هأنتذا قد بدأ لسانك ينطلق . تكلم يا شعبى وحدثنا حديثك .

ـــ لو أعفيتنى يا سيدتى ، فإنى والله لا أدرى كيف أحدثكما .

فكركرت عائشة ضاحكة ثم قالت :

ـــ أتحب أن تبقى هنا أم تنصرف ؟

ـــ بل أنصرف إذا أذنت .

ـــ استأذن من دعاك .

ـــ هل يأذن لى الأمير أصلحه الله ؟

ـــ اذهب يا شعبى مصاحبا ، ووافنى العشى بالمسجد .

ولما كان العشى وافاه الشعبى بالمسجد فسلم عليه ، فلما رآه مصعب قال له ادن منى ، فدنا منه حتى وضع يده على مرافقه فمال إليه فقال :

ـــ خبرنى يا شعبى هل رأيت مثل ذلك الإنسان قط ؟ .

ـــ لا والله ما رأت عينى مثله قط .

ـــ ولن ترى مثله أبدا .. أفتدرى لم أدخلناك ؟ .

ـــ لا أيها الأمير .

ـــ لتحدث الناس بما رأيت .

ثم التفت مصعب إلى كاتبه فقال له :

ـــ أعط الشعبى عشرة آلاف درهم وثلاثين ثوبا .

فكان الشعبى يحدث أصحابه بما رأى ويقول لهم : ما انصرف يومئذ أحد بمثل ما انصرفت به : بعشرة آلاف درهم ، وبمثل كارة القصار ثيابا ، وبنظرة من عائشة بنت طلحة .

ـــ أما سكينة بنت الحسين فقد كانت تحبه حبا صادقا ، ولكنها لا تظهر له من حبها إلا القليل . وكان هو يحبها حبا جما ، إلا أن تعلقها بالسياسة ، وإلحاحها عليه بمعاجلة عبد الملك بن مروان كلما لقيته دون انقطاع ، وغرامها بالتنديد بسياسة أخيه عبد الله وقدحها فيه ، قد قام بينه وبينها شيئا كالستار الرقيق ، يحول دون استمتاعه بحبها على الوجه الذى يرضيه .

ولما عاد من الحجاز ساخطا على أخيه ، أخذت تلومه وتعنفه ،

ولا سيما بعد ما عزله أخوه عن ولاية البصرة ، فكانت تقول له :

ـــ لو عملت بمشورتى ورأيى ما انتهيت إلى هذا الحال .

تشير بذلك إلى ما كان من تحريضها إياه من قبل على الاستقلال بالعراق عن أخيه . فقد كانت ترى دائما أن مصعبا أحق من عبد الله بن الزبير بولاية هذا الأمر ، لا لأنه أفضل منه أو أتقى منه ، بل لأنه أجدر أن يجمع قلوب الناس حوله بما يمتاز به من الخلال التى تحببهم فيه ، مما ليس عند عبد الله إلا نقائضها التى تفض الناس من حوله .

وكانت تشفق أن ترجح كفه عبد الملك بن مروان إذا بقى مصعب يعمل باسم أخيه ، فشتان بين من يشترى قلوب الأنصار والأتباع بالمال والجاه ، وبين من يبيعها بالشدة والصرامة ومنع العطاء .

كانت ترى مصعبا كفاء عبد الملك ، إن يفضله عبد الملك بدهائه ومكره ، فإن مصعبا يفضله بفروسيته وشجاعته وكرمه ، وبجماله الذى يفتن الأبصار .

ولكن ماذا يجدى كل ذلك على مصعب ، إن كان يعمل من أجل أخيه الذى يهدم كل ما يبنيه ؟ .

إنها لا تجهل مكانة عبد الله بن الزبير ، ولا تنكر تقواه وزهده وصرامته فى الحق ، وحرصه على اتباع النهج الذى سار فيه أمثال عمر بن الخطاب وعلى ابن أبى طالب من قبله ، على ما فيه من شوائب تقعد به عن اللحاق بهم .

ولكنها ترى أن الزمان قد تغير عما كان ، وأن الطراز الذى كان يصلح



فى أيام عمر بن الخطاب لم يعد يصلح حتى لأيام جدها على بن أبى طالب ، بعد ما اندلعت نيران الفتنة فى أيام عثمان بن عفان فذهب هو وقودها ، وتوالت الفتن كقطع الليل المظلم فقلبت موازين الأشياء ، فنجح من كان ينبغى أن يخفق ، وأخفق من كان ينبغى أن ينجح . ومن ذا ينسى ما كان بين الإمام على ومعاوية ، ثم ما كان بين أبيها الحسين ويزيد ابن معاوية ،

لقد أخفق على وهو أفضل الناس وأتقاهم ، ونجح معاوية وظفر بالخلافة وهو لا يساوى قلامة ظفر علىّ . ولقى أبوها الحسين مصرعه حين ثار على يزيد بن معاوية ، وشتان بين الحسين وبين يزيد .

فماذا يكون عبد الله بن الزبير إذا قيس بهؤلاء ، وكيف يتاح له النجاح من حيث أخفق من هم أفضل وأثبت فى هذا النهج الذى ساروا عليه ، ومن له بمهابة على فى صدور الناس ، أو بالحب الذى كانوا يضمرونه للحسين ؟

أما مصعب فإنه من الطراز الذى يصلح لولاية الناس فى هذا الزمان ، ففيه جميع الصفات التى تحببهم فيه وتجمعهم عليه ، وتعينه على بلوغ الغاية ، ولا يعوزه إلا شىء واحد هو الاستقلال بأمره عن أخيه .

ولقد ازداد أملها فى أن يقتنع برأيها هذا حينما عزل عن البصرة ، وأسندت ولايتها لحمزة بن عبد الله بن الزبير ، إذ كان مصعب فى حالة سخط شديد على أخيه ، ولكن ذلك لم يدم طويلا إذ ما لبث أن أعيد إلى ولاية البصرة ، فقضى ذلك على أملها فى إقناعه بالانصياع لما تريد .

على أنها لم تيأس كل اليأس من تحقيق الحلم الذى يراودها على وجه من

الوجوه ــ ذلك الحلم الذى بدأ يطوف برأسها منذ تزوجت مصعب بن الزبير ، فوجدت فيه من خلال الشجاعة والكرم والمروءة ، ما أغراها أن تطمع فى أمر لو تحقق كان فيه شفاء نفسها ونفوس شيعتها جميعا ، من الثأر لجدها ولأبيها وغيرهما من أهل بيتها النبوى الكريم ، تثأر من ذلك البيت الذى ناصبهم العداء ، وانتزع منهم الخلافة ، وأذاقهم صنوف العذاب والويل : بيت آل مروان .

٣

وردت الأنباء من الشام بأن عبد الملك بن مروان أرسل البعوث والسرايا ليكونوا طلائعه فى غزو العراق ، وأنه قد أعد لذلك جيشا هائلا وصمم على ألا يعود إلى الشام فى هذه المرة إلا بعد أن يفتح العراق . فلم يكد مصعب يصدق ما سمع ، إذ كان يعتقد دائما أن عبد الملك لا يمكن أن يكون جادا فى قتاله هو . فطالما ركب إليه من قبل بجيشه وهو يعلن أنه سيغزو العراق ويقاتل مصعب بن الزبير ، فإذا هو يغير على بعض الخوارج فى طريقه ، ثم لا يلبث أن يكر راجعا إلى الشام معتذرا بأن الشتاء ببرده ووحله قد حال دون مواصلة السير إلى مصعب .

وكذلك كان مصعب يفعل ، إذ يتوجه بجيشه نحو الشام للقاء عبد الملك فى الطريق ، فلا يلبث أن يعود قافلا إلى العراق حين يبلغه أن عبد الملك قد كر راجعا إلى الشام .

ولكن إبراهيم بن الأشتر كتب إليه من الكوفة يؤكد له عزم عبد الملك ، وينهى إليه أن بعض رجاله قد تسللوا إلى الكوفة ليدعوا أهلها إليه ، وأنه قبض على نفر منهم فاستنطقهم فأقروا له ، فلم يبق عند مصعب شك فى أن الأمر جد .

وأراد أن يستقدم المهلب بن أبى صفرة ، وكان يقاتل الخوارج بفارس


بيبي فايد

ليكون معه فى حرب الشام ، ولكن أهل البصرة أبوا عليه ذلك وقالوا له :

ـــ لا نسير معك ونترك البصرة هدفا للخوارج وقد بلغوا سوق الأهواز ، ما لم تترك المهلب يقاتلهم دوننا فإنا لا نأمن أن ينقضوا على البصرة إذا رأونا قد تركناها معك .

فانصاع مصعب لرأيهم .

ولما اعتزم المسير إلى الكوفة ، أصرت سكينة بنت الحسين على أن تصحبه حتى تكون إلى جانبه وهو يقاتل عبد الملك .

قال لها :

ـــ إنى اشفق عليك يا سكين ، من مشاق الطريق وأهوال القتال .

قالت له :

ـــ لا عليك يا مصعب منى ، فإنى انتظرت هذا اليوم من زمن طويل . وعسى أن تهزم هذا المروانى ، فتسير إلى الشام وتملكها مكانه .

و لم يشأ مصعب أن يقول لها إنه إنما يسير للقائه مكرها ، وأنه لو استطاع أن يتجنب قتاله لفعل ، وأن أمله فى الانتصار عليه إذا حاربه قليل ، فقد أحس أن أهل العراق لن يقاتلوا معه بإخلاص ونية ، منذ ساء رأيهم فى أخيه عبد الله بن الزبير . فلو قال لها شيئا من ذلك لطفقت تلومه وتعنفه على ما أضاع من الفرصة من قبل ، إذ لم يستمع لـرأيها فى الاستقلال عنه من عهد بعيد .

ولكنه اجتهد أن يصرفها عن المسير معه بشتى الأسباب ، ما خلا السبب الصحيح وهو قلة رجائه فى النصر ، وإشفاقه عليها مما قد يمسها

من عواقب الهزيمة .

فلما أصرت على رغبتها فى المسير معه لم يسعه إلا أن يوافق .

وكان الأحنف بن قيس فى طليعة الرجال الذين قدموا معه من البصرة ، ولكنه كان مريضا فما لبث أن اشتد به المرض وثقلت عليه العلة ، فأرسل إلى مصعب فعاده فوجده يجود بنفسه :

ـــ يسوءنى والله يا مصعب أن تجدنى كما ترى ، وأن تحول هذه العلة دون ما أبغى من الخروج معك ونصرتك .

ـــ لا بأس يا أبا بحر ، فإنى لن أخرج إلا بعد أن تقوم من علتك إن شاء الله .

ـــ هيهات يا مصعب : فما أراها إلا النهاية .

فبكى مصعب وهو يقول :

ـــ نفسى فداؤك يا أبا بحر .

ـــ كفكف دموعك يا ابن أخى وأصغ إلى ما أقول ، قبل أن يقبض لسانى فلا أستطيع الكلام . أرسل إلى المهلب ليكون ظهيرا لك فى هذا الوجه .

ـــ قد علمت رأى هؤلاء فى ذلك .

ـــ أرسل إليه ولا تبال بهم ، فإنى لا أثق بهؤلاء ولا آمن أن يغدروا بك إذا حمى الوطيس .

ـــ إنى أخشى من الخوارج على البصرة .

ـــ أمر الخوارج أهون من أمر عبد الملك ، فإن غلبته كان يسيرا عليك

أن تخرجهم من البصرة بعد ذلك . أما إن غلبك . .

وثقل لسان الأحنف فلم يستطع أن يتم كلمته .

وحزن مصعب لموت صديقه الأحنف حزنا شديدا ، فقد كان أمين سره والملجأ الذى يلجأ إليه كلما حزبه أمر عظيم أو وقع فى مشكلة لا يدرى وجه الرأى فيها ، فيجد عنده ما يشاء من حل سليم وتوجيه حكيم .

وتشاءم من موته فى تلك الفترة الحرجة وذلك الوقت العصيب ، وهو يتجهز لقتال أهل الشام وقد قلت ثقته بأشياعه من أهل العراق ، منذ كان من سوء معاملة أخيه عبد الملك لهم فى الحجاز ما كان .

وهم أن يعمل بوصيته فى استقدام المهلب بن أبى صفرة ، ولكنه أشفق أن يثير ذلك قيامة أهل العراق عليه ، وليس لديه من يشد أزره عليهم ويعينه فى إخضاعهم لأمره ، بعد أن مات ذو الكلمة المسموعة بينهم والرأى المطاع .

* * *

وقضى مصعب بعد موت صديقه الاحنف أياما وليالى وهو فى بحران من الهم ، لا يستطيع له دفعا ولا يجد منه خلاصا . واستبدت به الحيرة فلا يدرى ماذا يأتى وماذا يدع ، وتردد فى كل شىء فلم يستطع أن يعقد عزمه على شىء ، حتى لقد نازعته نفسه أن يعدل عن المسير لقتال عبد الملك ويعلن ذلك للناس .

لقد أيقن أن أمر أخيه عبد الله بن الزبير إلى إدبار ، وأن نجم عبد الملك

ابن مروان إلى سطوع ، وأن قصارى ما يستطيع عمله هو إذا ما خرج لقتال عبد الملك وانتصر عليه أن يؤجل هذه النهاية إلى حين ، ولكنها آتية لا ريب فيها إن عاجلا أو آجلا ، فماذا يدفعه إلى القتال فى سبيل قضية خاسرة ؟

ولكن هل يستطيع حقا أن يتراجع عن المسير لقتال عبد الملك ؟ وماذا يكون موقفه من أخيه و موقف أخيه منه ؟ ثم ماذا يكون من أمر عبد الملك نفسه ؟ أيرتد قافلا إلى الشام إذا بلغه عدول مصعب عن لقائه وذلك بعيد ، أم يمضى قدما حتى يقرع عليه أبواب العراق ؟ وإذاً فماذا يفيد تراجع مصعب إن فعل ؟

لقد فقد مصعب كل أمل إلا أملا واحدا يتراءى له من بعيد .. أملا يكتنفه الشك من كل جانب ولا يجرؤ مصعب أن يحدث به أحدا ، لأن أحدا لا يمكن أن يقتنع به ، بل ربما سخر منه إذا سمع به ، وإن مصعبا نفسه لقليل الثقة فى إمكان أن يتحقق ، فقد جعلته الأيام سيء الظن بالناس قليل الإيمان بأن فيهم بعد من يلتزم قواعد المروءة والشهامة كما يلتزمها هو ، ويراها قطعة من نفسه وجزءا من تكوينه . وإنه ليقلب فكره فى الناس من قريب وبعيد ، وبين كبير وصغير ، فلا يجد هذه الشمائل فى أحد منهم بالصورة التى يجدها فى نفسه ، بحيث يستطيع أن يتعامل معه على كلمة سواء ، اللهم إلا أن يكون إبراهيم بن الأشتر .

ولكن هذا الأمل هو الأمل الوحيد الذى بقى أمامه ، فعليه أن يبلوه ليرى ما يكون من أمره ، وأن يغلب حسن ظنه بنفسه على سوء ظنه

بالناس . واستدعى مصعب إبراهيم بن الأشتر ، فلما خلا به قال له :

ـــ أتدرى يا إبراهيم لماذا دعوتك الساعة ؟

ـــ لخير إن شاء الله .

ـــ أجل لأرى رأيك فى أمر رجوت أن يجعل الله لنا فيه مخرجا مما نحن فيه .

ـــ وماذاك يا مصعب ؟

ـــ أحسبنى قد حدثتك ذات مرة بما كان بينى وبين عبد الملك بن مروان من صداقة قديمة ، وود متين .

ـــ نعم .

وأسررت إليك أيضا أننا ظللنا برهة يتقى أحدنا حرب الآخر ، فكان يخرج لقتاله ثم يكر راجعا من نصف الطريق .

ـــ نعم نعم ، ولكنه فى هذه المرة لن يرجع يا مصعب عن قتالنا حتى يفتح العراق ، أو نفتح نحن الشام . أوَتشك بعد فى ذلك يا مصعب ؟

ـــ كلا يا إبراهيم ما أشك فى ذلك ، ولكن سنح ببالى أن لو مضيت إليه سرا دون أن يعلم أحد بمذهبى حتى أصل إليه فى بعض الطريق ، فأزعم لرجاله أننى رسول مصعب بن الزبير إليه ، فإذا خلوت به كلمته وناشدته أن يرجع من حيث جاء فنحقن بذلك دماء المسلمين أن تراق فى غير طائل .

ـــ ويحك يا مصعب ، أوَتظن أن ابن مروان يستجيب لك ؟

ـــ قد يستجيب فإنه ما علمت ـــ لرجل خير .

ـــ كلا يا مصعب ، إن عبد الملك الذى كنت تعرفه فيما مضى غير عبد الملك اليوم .. إن الذى كان يدعوه الناس حمامة المسجد قد انقلب اليوم إلى كبش بنى مروان .. كبش نطاح وأيم الله يا مصعب !

ـــ أعلم ذلك يا إبراهيم ، ولكنه لن ينسى ما بيننا من الود القديم .

ـــ أتدرى يا مصعب ما آفتك ؟ آفتك أنك تقيس غيرك بمقياس نفسك .

ـــ وأى بأس فى أن أجرب هذا السبيل معه ؟ إن لم يقبل استعنت الله عليه فقاتلته وقد أعذرت .

ـــ خبرنى يا مصعب ، أتشفق منه عليك ، أم تشفق منك عليه ؟

ـــ أشفق على الخلة التى بيننا ، أن تقضى عليها حرب لا طائل فيها لأحد .

ـــ لعلك يا مصعب لم تعد ترى أخاك أحق بالخلافة من عبد الملك ؟

ـــ بلى ، إن أخى لأحق بها منه .

ـــ مهما يكن رأيك فى أخيك ، فإن عبد الملك يرى نفسه أحق بالخلافة من أخيك ، فلن يضيع فرصة تتيح له الغلبة عليه من أجل صداقة قديمة بينك وبينه ، أو ود متين .

ـــ إذن يكون لى معه شأن آخر .

ـــ لعلك تعود إلينا من عنده فتخرج بنا لقتاله ؟

ـــ نعم .

ـــ من أين لك أنه لا يغدر بك فيبقيك أسيرا عنده ؟

ـــ كلا يا إبراهيم ، لن يغدر بى عبد الملك .

ـــ ماذا يمنعه ؟ لقد غدر بابن عمه عمرو بن سعيد الأشدق .

ـــ لكنه لن يغدر بى أبدا . ربما لا يستجيب لما أدعوه إليه ، ولكنه لن يغدر بى أبدا . محال أن يصنع بى ذلك .

ـــ محال ؟

ـــ ويلك ما خطبك يا ابن الأشتر ؟

كنت أحسب أنك تعلم من شرع المروءة أكثر من هذا .

ـــ ما شأن مروءتى فى هذا الأمر ؟

ـــ هب أنك كنت مكان عبد الملك ، أفكنت تغدر بى على هذه الصورة ؟

ـــ بربك لا تقسنى بعبد الملك فشتان ما بينه وبينى .

ـــ معذرة يا إبراهيم . حقا إنك لأفضل منه وأعظم مروءة ، ولكنه هو أيضا لا يمكن أن ينحدر إلى هذا الدرك .

ـــ ماذا يحملك على أن تتجشم إليه الطريق بنفسك ؟ ابعث إليه بكتاب منك ، أو ابعث إليه رسولا يشافهه بما تريد .

ـــ كلا يا ابن الأشتر ، لن يكون ذلك مثل حضورى بنفسى إليه .

ـــ والله يا مصعب لولا ما أمنتنى على سرك ، لكتبت إلى أخيك عبد الله بنيتك هذه مع عدوه ليخلعك ، ويولى غيرك مكانك .

ـــ حاشاك يا إبراهيم أن تفعل ذلك .

وطار الحوار بينهما على غير اتفاق ، وأدرك ابن الأشتر ألا سبيل إلى

إقناع مصعب بالعدول عن عزمه ، فتركه وما اختار لنفسه دون أن يجد عليه فى ذلك ، بل أحس برثاء له وشفقة عليه ، وإكبار لهذه الشمائل فيه التى يندر وجودها فى الناس ، وهى بعد غير غريبة على نفسه .

— أما إذ صممت على ذلك ، فدعنى أرافقك إليه لعلك تحتاج إلىّ .

— كلا يا إبراهيم ، بل ابق أنت هنا مكانى حتى أعود من عنده ، وقد هيأت أنت الناس للمسير .

— إذن فاحرص على سرك هذا لا تفشه لأحد ولا لأهلك . وسأزعم للناس أنك انطلقت إلى جهة الأهواز لتتفقد مواقع المهلب بن أبى صفرة مع الخوارج ، حتى تأمن جانبهم قبل أن تمضى لقتال عبد الملك .

وسر مصعب من رأيه هذا فاحتضنه وقبل ما بين عينيه ، وهو يقول :

— بأبى أنت يا إبراهيم وأمى . والله لا أدرى ماذا كنت أصنع لو لم يؤيدنى الله بك .

ولما دخل مصعب على سكينة وأخبرها بعزمه على زيارة الأهواز ، أنكرت عليه ذلك بشدة وقالت :

— كيف تترك عدوك الأكبر يطوى القفار إليك ، وتمضى لتتفقد حرب الخوارج ؟

— لأطمئن على موقف المهلب هناك ، فأمضى للقاء عبد الملك دون أن يشغلنى عنه شاغل .

فطفقت تناقشه فى ذلك نقاشا طويلا حتى هم أن يخبرها بحقيقة عزمه ، لو لم يتذكر ما اتفق عليه مع صديقه ابن الأشتر .

* * *

وتسلل مصعب ذات ليلة فخرج من مدينة الكوفة سرا دون أن يعلم بمسيره أحد ، ولم يكن معه غير ابن الأشتر الذى انطلق معه فرافقه مسافة فى الطريق لا يريد أن يتركه ، إلى أن عزم عليه مصعب أن يعود فودعه وكر راجعا إلى الكوفة ، حيث دخلها قبيل الفجر .

وانطلق مصعب على جواده الأشهب يطوى القفار طيا ، لا يلوى على شىء ويواصل الليل بالنهار ، لا ينزل عن جواده إلا ريثما يريحه قليلا فيعلفه ويسقيه ، ثم يستأنف السير حتى قطع فى خمسة أيام ما يقطع عادة فى اثنى عشر يوما .

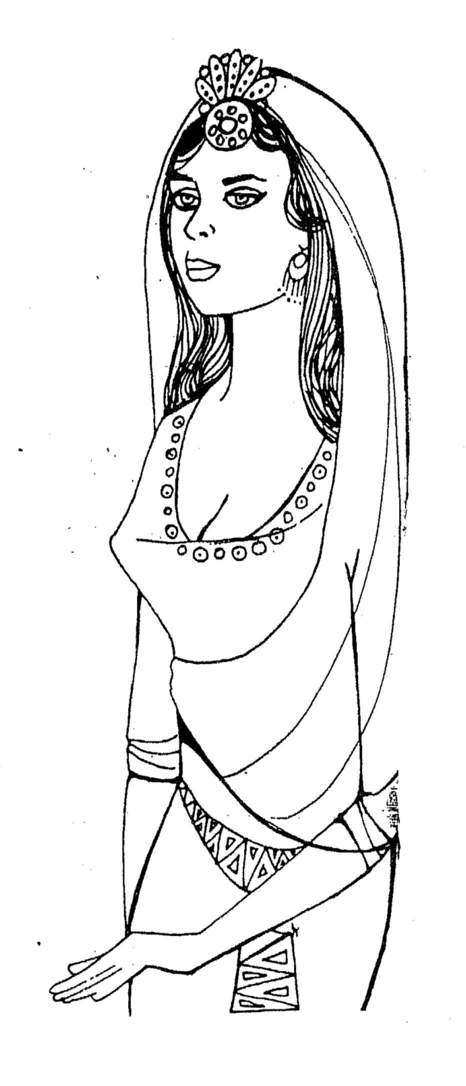
ولم يبطىء من مسيره إلا حينما لمح النيران تضئ من بعيد على مساحة كبيره من الأرض ، فأدرك أنها نيران جيش الشام قد عسكر فى ذلك المكان ، فتنفس الصعداء وقال : الليلة ألقى خليلى عبد الملك !

وخفق قلبه لقرب لقاء صديقه القديم ، وطفق يستعيد ذكريات صباه معه . وأخذت مدينة الرسول تتمثل فى ذهنه حيث كانا يلعبان فى دروبها صبيين صغيرين ، ويتسابقان على جواديهما فى ضواحيها يافعين . ولم يقطع عليه حبل ذكرياته إلا فارسان من طلائع جيش الشام قد برزا له من عرض الطريق كأنما انشقت عنهما الأرض ، فألقى عليهماالتحية فردا عليه .

— من الفارس ؟

— رسول من مصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان .

— أين الرسالة ؟



ـــ أمرت أن أسلمها إلى أميركم يدا بيد .

فأخذا يتفرسان فى وجهه فى ضوء القمر ، ثم نظر أحدهما إلى الآخر كأنما يتشاوران فى أمرهْ .

ـــ هل لكما أن توصلانى إلى أميركم ؟

ـــ نعم ، هلم معنا .

فعطفا جواديهما وسارا معه أحدهما عن يمينه والآخر عن يساره ، وما لبث الثلاثة أن انضم إليهم عدد كبير من الفرسان فأحاطوا به من كل جانب . وكلما اقتربوا من المعسكر زادت نيرانه لمعانا ، فظهرت على ضوئها الخيام العديدة المنصوبة على ذلك السهل الواسع . فأيقن مصعب صدق ما بلغه من أن عبد الملك قد صمم هذه المرة على ألا يرتد عن العراق حتى يفتحه .

ولما بلغوا أول المعسكر ترجلوا عن جيادهم ، فترجل مصعب مثلهم ، ودنا مصعب من كبيرهم فأسر إليه أن الرسالة سرية ، وأن أميرهم عبد الملك بن مروان ربما لا يريد أن يذيع أمرها فى رجال المعسكر . فأومأ برأسه موافقا ، والتفت إلى أحد رجاله قائلا :

ـــ خذ جواد هذا الرسول فاحفظه عندك ، حتى نطلبه منك .

وأخذ بيد مصعب فمشى به بين الخيام ، فرأى أكثر الجنود فيها قد آووا إلى مضاجعهمليناموا ، وبقى قليل منهم بين قائم أو قاعد يهيئ فراشه للنوم إلى أن بلغ به خيمة حمراء فخمة بين خيمتين كبيرتين ، أدرك من روائها أنها لعبد الملك وحاشيته . فوقف به أمام إحدى الخيمتين ، فإذا

رجل ربعة أحمر اللون يخرج منها ليستقبله كأنما كان على ميعاد معه ، فعرفه مصعب من أول وهلة . إنه محمد بن مروان أخو عبد الملك . فلما سلم عليه مصعب دهش الرجل ، فوضع يده فى مقبض سيفه .

ــ لا ترع ، أنا رسول مصعب بن الزبير إلى عبد الملك بن مروان .

ــ بل أنت مصعب بن الزبير .. لا تحاول أن تخدعنى فقد عرفتك .

ــ لا خداع يا محمد . أنا مصعب ، وأنا رسول مصعب .

ــ مرحبا بك يا ابن الزبير .. ادخل .

ودخلا الخيمة فإذا فيها رجلان آخران كانا قاعدين ، فنهضا لما رأياه .

ــ هلم يا خالد .. هلم يا عبد الله . هذا مصعب بن الزبير .

فدهشا قليلا ، ثم أقبلا يصافحانه ومحمد بن مروان يقدمهما إليه .

ــ هذا خالد بن يزيد بن معاوية ، وهذا عبد الله بن يزيد بن معاوية .

وجعل محمد وخالد يرحبان به ويوسعان له فى المجلس . أما عبد الله فقد ظل صامتا ينظر إليه نظرة فيها مكر وغدر ، ثم استأذن وخرج .

ــ أين عبد الملك فإنى فى شوق إليه ؟

ــ هلا قلت أين أمير المؤمنين يا مصعب ؟

ــ كلا يا محمد ، إن أمير المؤمنين فى مكة .

ــ كذبت ، بل هو هنا فى الخيمة المجاورة .

فتبسم مصعب وهو يقول :

ــ هلا أخبرتموه بمجيئى ؟

ــ قد علم أمير المؤمنين بمجيئك .

— أتظن أنه هو الذى بعثنى ؟ لا والله لقد حضرت دون علم منه !

— أنا أعنى أمير المؤمنين أخى .

— وأنا أعنى أمير المؤمنين الصحيح .

قال خالد وهو يضحك مما يسمع ، كأنه مسرور بذلك :

— لا تتلاحيا .. لكل منا أمير المؤمنين .

وارتفع صوت أبح من جهة باب الخيمة ، يقول :

— مهلا يا خالد .. ليس للمسلمين غير أمير واحد .

— هو الذى فى مكة .

— بل هو الذى بين يديك يا مصعب !

وإذا صاحب الصوت هو عبد الملك بن مروان ، قد دخل فى عباءة من الخز الفاخر وخلفه عبد الله بن يزيد . فوقف عبد الملك باسطا يديه كأنه يدعو مصعبا إلى عناقه ، فوثب مصعب إليه فتحاضنا وتعانقا طويلا لا يكاد ينقطع حتى يعود إليه من جديد ، فى صورة أصدق وأشد حرارة ، حتى شعر الثلاثة الآخرون بشىء من الحرج أن يروا هذا المشهد أمامهم دون أن يدروا ماذا ينبغى عليهم أن يفعلوا . وأحسوا كذلك بضآلة شأنهم إزاء هذا الموقف الفريد ، الذى لم يخطر لهم على بال ، ولم يستطيعوا له فهما ولا تفسيرا . وقد ضاعف شعورهم هذا ما بدا من عبد الملك من تناسيهم وتجاهلهم جملة واحدة ، حتى كأنما كانوا غير موجودين هناك .

وما تخلصوا من هذا الحرج إلا حينما أومأ إليهم عبد الملك بالخروج من

الخيمة ، وتركهما وحدهما ، فتسللوا خاجين إلا ما كان من عبد الله بن يزيد ، فقد تلبث قليلا كأنه غير مطمئن إلى انفرادهما فى الخيمة ، حتى نظر إليه عبد الملك نظرة قاسية لم يسعه بعدها إلا أن ينسحب .

قال مصعب :

ــ أحسب هذا الفتى يخشى منى عليك ؟

قال عبد الملك :

ــ أجل ، إنه لا يعرف ما بينى وبينك يا مصعب .

و لم يكد يتم كلمته حتى عاد عبد الله بن يزيد ثانيا ، فصاح عبد الملك فى وجهه :

ــ ويلك يا ابن أخى . ماذا تريد ؟ ألم أصرفك من عندى الساعة ؟

فتمتم عبد الله قائلا :

ــ إنه يتقلد سيفه يا أمير المؤمنين ، فهلا أذنت لى أن آخذه منه ؟

فصاح به عبد الملك :

ــ بل دعه ويلك ، ما أنت وذاك ؟

وهم مصعب أن يلقى بسيفه إليه ، فمنعه عبد الملك قائلا :

ــ دع عنك هذا يا مصعب ، والله لو غدر بى الناس جميعا ما غدرت بى أنت .

وخرج عبد الله بن يزيد ، فنظر أحدهما إلى الآخر وانفجرا يضحكان .

ــ هلم بنا نجلس يا مصعب ونتحدث ، فإنى فى شوق إليك وإلى

حديثك .

— هل دار بخلدك قط يا عبد الملك ، أننى سأجئ هكذا وحدى إليك ؟

— نعم ، توقعت أن تلقانى ولكن فى غير هذا المكان ، إلا أن تكون قد خرجت بجيشك من الكوفة ، فهو فى بعض الطريق وسبقته إلىّ ؟

— لا والله يا عبد الملك ، ما زال جيشى بالكوفة . وإنما جئت إليك وحدى دون أن يعلم بمسيرى أحد .

— أما هذا فلم يخطر على بالى ، وإنه لعمل لا يأتى مثله غير رجل واحد فى العرب ، هو أنت .

فضحك مصعب وهو يقول :

— وأخشى ألا يقدره حق قدره غير رجل واحد فى العرب ، هو عبد الملك بن مروان .

واستضحك عبد الملك قليلا وهو يقول :

— صدقت يا مصعب .

ثم لم يلبث أن أطرق واجما .

وران عليهما صمت غريب ، وأخذ مصعب فى أثناء ذلك ينظر إلى عبد الملك كأنه يريد أن يستشف ما يعتمل فى نفسه .

— ما خطبك يا عبد الملك ، ماذا يدور الآن فى فكرك ؟ بحياتى عليك إلا ما أخبرتنى .

فتنهد عبد الملك وهو يقول :



ـــ لقد ألم بى خاطر سوء .

ـــ قالت لك نفسك الأمارة : هذا قد جاء وحده دون أن يعلم أحد من قومه ، فلو ..

وابتدره عبد الملك قائلا :

ـــ أجل هو ذاك ، ولكن حاشا لله يا مصعب لا ينبغى أن أخيب أملك فى صديقك القديم .

وضحك الاثنان وصفا ما بينهما مرة أخرى .

قال مصعب :

ـــ أليس من نكد الدنيا يا عبد الملك ، أن تضطر لمحاربتى وأضطر لمحاربتك ؟

ـــ بلى والله ، ولكن الملك عقيم .

ـــ أفلا نبرم بيننا عهدا ألا يقاتل أحدنا الآخر ما حيينا أبدا ؟

ـــ قد علمت يا مصعب أنى لست أقاتلك على شىء ، وإنما أقاتل عبد الله أخاك .

ـــ بل تقاتلنى إذ تقاتل أخى .

ـــ اخلع أخاك وأعلن نفسك مكانه ، فستجدنى أكف عنك وأقاتله معك .

ـــ معاذ الله أن أفعل ما ليس لى بحق .

ـــ أنت أحق والله بهذا الأمر منه .

ـــ ومنك ؟

ــ لا بل تفضلنى فى أشياء وأفضلك فى أشياء . ولكنا سنبرم بيننا حينئذ العهد الذى اقترحت .

ــ هيهات ! إنك لتعلم أن عبد الله بن الزبير أفضل منى ومنك .

ــ بأى شيء يفضلنى ؟

ــ أبوه الزبير بن العوام حوارى رسول الله ﷺ ، وهو أفضل من أبيك مروان بن الحكم ، وأمه أسماء بنت أبى بكر الصديق ، وهى أفضل من أمى وأمك ، وهو أول مولود ولد للمسلمين فى المدينة عقب الهجرة .

ــ كل هذا حق ، ولكنه هو لا يفضلنى .

ــ بل هو أتقى لله منك . لقد كنت تلازم المسجد قديما حتى لقبوك حمامة المسجد ، ولكنك ما لبثت أن شغلك الملك عن صلاتك وفقهك . أما عبد الله أخى فلم يشغله شيء عما عود عليه نفسه من صلاته وتهجده .

ــ ولكنه بخيل ، والبخيل لا يسود أبدا .

ــ لو شاء أن يتكرم على أصحابه وأنصاره بما فى بيت مال المسلمين لفعل ، ولكنه أتقى لله من ذلك .

ــ ألا تعلم يا مصعب أنه بغيض إلى الناس ، وأننى أحب إليهم منه ؟

ــ الناس لا يبغضونه وإنما يبغضون الحق ، وهم لا يحبونك أنت وإنما يحبون المال الذى تشترى به ضمائرهم .

وسكت عبد الملك قليلا ثم قال :

ــ إن كان عبد الله بن الزبير كما زعمت ، وكنت أنا أنازعه هذا الأمر بغير حق ، ففيم عرضت على أن نتوادع ؟

ـــ إنما عرضت ذلك إبقاء على الود الذى بينى وبينك .

ـــ الود آثر عندك من الحق ؟

ـــ نعم .. أوَ ليس كذلك عندك ؟

ـــ لا أدرى والله أيهما أختار لو خيّرت . ولكن الله لم يحوجنى إلى ذلك ، إذ كان فى مقدورى لو وافقت أنت ، أن أجمع الحق والود فى ناحية واحدة .

ـــ ماذا تعنى ؟

ـــ أعنى ما قلته لك من قبل : أن تخلعه وتعلن الأمر لنفسك ، فأقاتله هو ولا أقاتلك .

ـــ بل أردت يا غدر أن تتغدى به ، ثم تتعشى بى ؟

ـــ لا والذى عقد بيننا هذه الخله ، لا أتعرض لك حينئذ أبدا .

ـــ وأنا والله لا أخون أخى أبدا .

وصمت عبد الملك قليلا ثم قال :

ـــ إن كنت تراها كبيرة عليك ، فعندى ما هو أفضل لك من ذلك .. اعتزل ولاية أخيك وأقم عندى بالشام ، وسأقطعك بها ماتشاء من أرض تعيش فيها عيشة رغدا مع أولادك ونسائك .

فاستشاط مصعب غضبا .

ـــ ويلك ! لقد ساومتنى على الدنية يا عبد الملك . ألمثلى تقول هذا القول ؟ آه لو غيرك قالها !

فطفق عبد الملك يهدىء غضبه ويلاطفه ويعتذر له .



ــ سامحنى يا مصعب ، فوالله ما أردت أن أغضبك . ماذا أصنع ؟ أنت الذى دعوتنى إلى أمر يصعب تحقيقه ، فأردت أن ألتمس له سبيلا يحققه على وجه من الوجوه .

ــ أتأذن لى إذن يا عبد الملك ؟

ــ أين تذهب ؟

ــ أعود إلى رجالى .

ــ كلا والله ، لتقيمن عندى بضعة أيام فإنى ما قضيت الشوق منك .

ــ أتريد أن تحجزنى عن رجالى لئلا أخرج بهم إليك ؟

ــ لا والله لأدعنك تذهب إليهم حينما تشاء .

ــ حين لا يكون بينك وبين الكوفة إلا قليل ؟

ــ لا ترع .. سنقيم فى هذا المكان ما بقيت معنا ، ولن نبرحه إلا بعد أن تغادرنا ، فما رأيك ؟

فأطرق مصعب قليلا كأنه يفكر فيما سمع ، ثم قال :

ــ لا بأس إذن .

ــ جزاك الله خيرا يا أخى . من يدرى لعلنا نستطيع غدا أن نتفق على شىء .

وصفق عبد الملك فدخل بعض رجاله فأمرهم أن يدعوا له محمد بن مروان .

فلما حضر قال له :

ــ هذا ابن عمك مصعب بن الزبير قد عهدت به إليك ، لتنزله معك وتكرمه جهدك . واكتموا حقيقته عن الجميع ، وازعموا لهم أنه رسول مصعب .

ــ سأفعل يا أمير المؤمنين .

ــ اذهب يا مصعب مع محمد ، وسنلتقى غدا إن شاء الله .

* * *

وقضى مصعب ثلاث ليال فى معسكر عبد الملك ، كان يجالسه فيها صباحا ومساء ولا يفترقان الا عند القيلولة ظهرا ، وعندما يأويان للنوم ليلا . وكان يحضر مجلسهما الأمراء الثلاثة محمد وخالد وعبد الله أو بعضهم ، ولكن كثيرا ما كانا ينفردان فى المجلس فلا يحضره معهما أحد .

وكان جل حديثهما يدور حول ذكرياتهما القديمة فى مدينة رسول الله ، منذ كانا طفلين إلى أن بلغا مبلغ الرجال ، وحول معارفهما من الناس فى تلك الحقبة الغالية من حياتهما ، من بقى منهم ومن مات .

وكانا فى ذلك كأنما يمتحان من بئر واحدة على التعاقب بينهما ، فإذا تذكر أحدهما أمرا من الأمور أو شخصا من الأشخاص ، انبرى الآخر يذكر من التفاصيل ما يكمل به الذكرى التى استحضرها صاحبه . وكانا يجدان لذلك لذة عظيمة كأنما يستعيدان فلذا عزيزة من عهود الصبا وأيام الشباب .

وتكرر النقاش بينهما حول المهمة التى حضر مصعب من أجلها من وجوه شتى وزوايا مختلفة ، غير أنه كان ينتهى بينهما دائما بالخلاف .

وذات مرة قال له عبد الملك :

ـــ والله يا أخى إنى لشديد الحرص على ألا تنصرف من عندى إلا على شىء . ولكنك تسد الأبواب كلها ما خلا بابا واحدا لا سبيل إلى ولوجه .

فأجابه مصعب :

ـــ بل هو الباب الوحيد الذى يمكن أن نلجه على سواء بيننا ، لا غضاضة فيه علىّ ولا عليك حتى يجعل الله لنا مخرجا من الأمر كله .

قال عبد الملك :

ـــ إنى مصارحك الآن بأمر لا ينبغى أن أخفيه عليك ، فعدنى ألا تثور غضبا إذا سمعته .

ـــ لك على ذلك .

ـــ إننا لسنا سواء يا مصعب فى الرجال والعدة . عندى أهل الشام وهم أطوع لى من بنانى ، وليس فيهم خائن ولا منافق .. وعندك أهل العراق وهم أهل شقاق ونفاق ، فالنصر مضمون لى عليك .

ـــ كلا ، إن النصر بيد الله ، ورجالى ليسوا كما ذكرت .

ـــ إن أخاك عبد الله أعرف بهم منك ، حين قال لوفدهم إليه :

ـــ وددت لو أن لى بكل عشرة منكم رجلا من أهل الشام ، صرف الدينار بالدرهم .

ــ ليست الحرب بالأقوال يا عبد الملك ، ولكن بالفعال .

ــ اعلم إذن أن كثيرا من وجوه أصحابك ، قد كاتبونى يعرضون انضمامهم إلىّ .

ــ إن فعلوا فسيخونونك كما خانونى . ولى عنهم غنى بالمخلصين الثابتين ، وهم كثير .

ــ إن شئت يا مصعب سميتهم لك ، وأطلعتك على رسائلهم لتصدقنى .

ــ كلا ، لا ينبغى لك أن تفعل ولا ينبغى لى أن أسمع . ليس ذلك من المروءة يا عبد الملك .

وفى اليوم الثالث حين تهيأ مصعب للمسير ، وخلا به عبد الملك ليودعه ، ناشده مصعب أن يستجيب لدعوة السلام وينقلب إلى الشام ذلك العام عسى أن يجعل الله لهما مخرجا فى مستقبل الأيام . وتأثر عبد الملك من كلمات صديقه التى قالها فى صدق وإخلاص حتى ترقرق الدمع فى عينيه ، فتوهم مصعب أنه سيجيبه إلى ما طلب .

ولكن عبد الملك لم يزد على أن ألطف له القول ، ووعده بالنظر فى هذا الأمر .

وتعانق الصديقان لحظة أطلقا فيها لدموعهما العنان ، ثم تجلدا ومسح كل منهما دمعه . قال عبد الملك وهو يشيعه إلى باب الخيمة :

ـــ لولا خوفى أن يتكشف سرك يا مصعب ، لخرجت أشيعك إلى بعض الطريق .

فشكره مصعب على بره وتكرمته ، ثم خرج إلى حيث أعد له جواده فركبه وانطلق .

(تمت)

مؤلفات الأستاذ على أحمد باكثير

(١) اخناتون ونفرتيتى
(٢) سلامة القس
(٣) وا إسلاماه
(٤) قصر الهودج
(٥) الفرعون الموعود
(٦) شيلوك الجديد
(٧) عودة الفردوس
(٨) روميو وجولييت
(٩) سر الحاكم بأمر الله
(١٠) ليلة النهر
(١١) السلسله والغفران
(١٢) الثائر الأحمر
(١٣) الدكتور حازم
(١٤) أبو دلامة
(١٥) مسمار جحا
(١٦) مسرح السياسة
(١٧) ماسأة أوديب
(١٨) سر شهر زاد
(١٩) سيرة شجاع
(٢٠) شعب الله المختار
(٢١) إمبراطورية فى المزاد
(٢٢) الدنيا فوضى
(٢٣) اوزوريس
(٢٤) دار ابن لقمان
(٢٥) قطط وفيران
(٢٦) إله إسرائيل
(٢٧) هاروت وماروت
(٢٨) التوراة الضائعة
(٢٩) جلفدان هانم
(٣٠) فى ذكرى محمد ﷺ
(٣١) من فوق سبع سموات
(٣٢) الشيماء
(٣٣) إبراهيم باشا

الملحمة الإسلامية الكبرى « عمر » :

(١) على أسوار دمشق
(٢) معركة الجسر
(٣) كسرى وقيصر
(٤) أبطال اليرموك
(٥) تراب من أرض فارس
(٦) رستم
(٧) أبطال القادسية
(٨) مقاليد بيت المقدس
(٩) صلاة فى الإيوان
(١٠) مكيدة من هرقل
(١١) عمر وخالد
(١٢) سر المقوقس
(١٣) عام الرمادة
(١٤) حديث الهرمزان
(١٥) شطا وأرمانوسة
(١٦) الولاة والرعية
(١٧) فتح الفتوح
(١٨) القوى الأمين
(١٩) غروب الشمس

رقم الإيداع ٣٨٠٧ / ١٩٩٣
الترقيم الدولى 2 - 0785 - 11 - 977

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي - الفجالة



الثمن ١٧٥ قرشا

دار مصر للطباعة
سعيد جوده السحار وشركاه